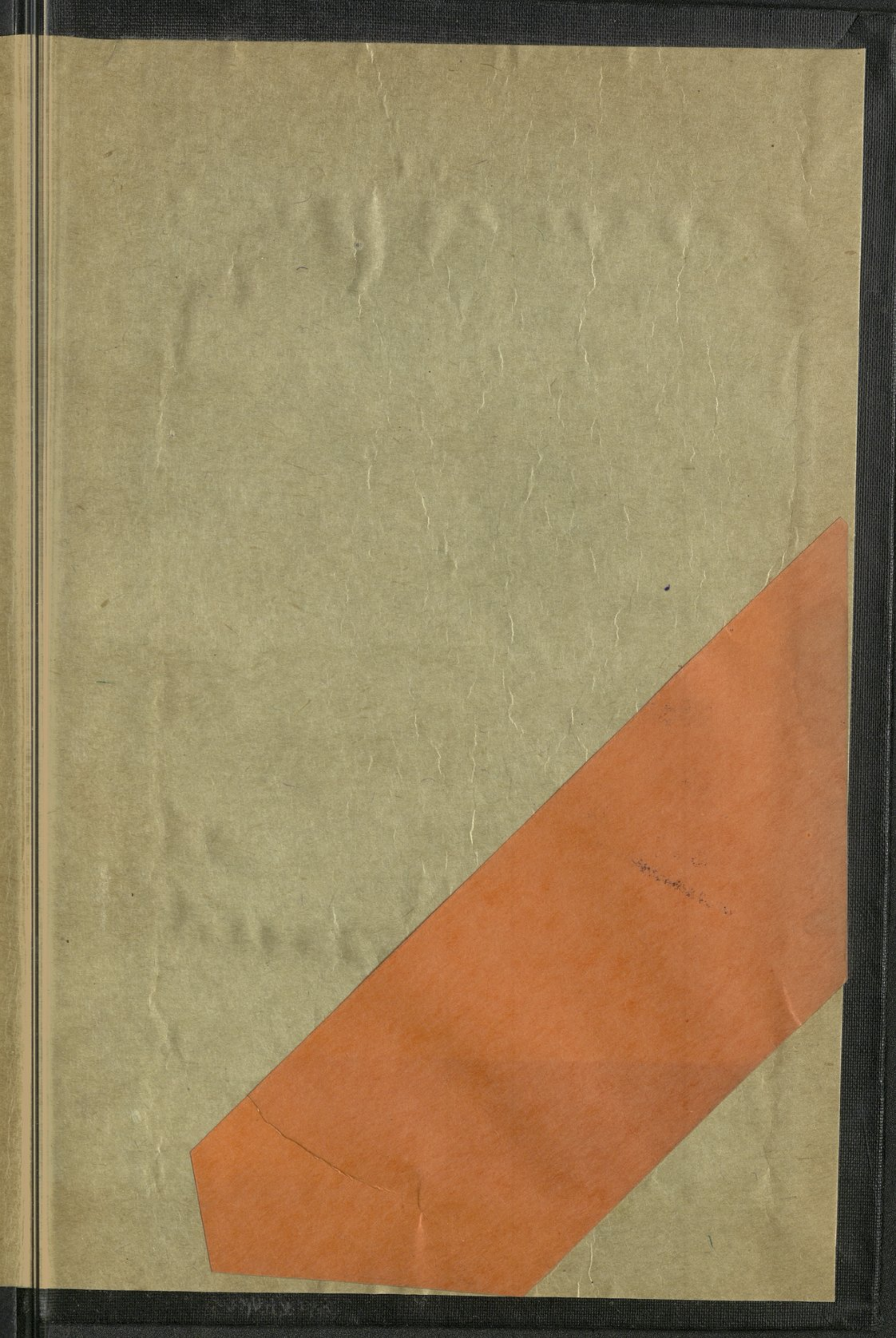
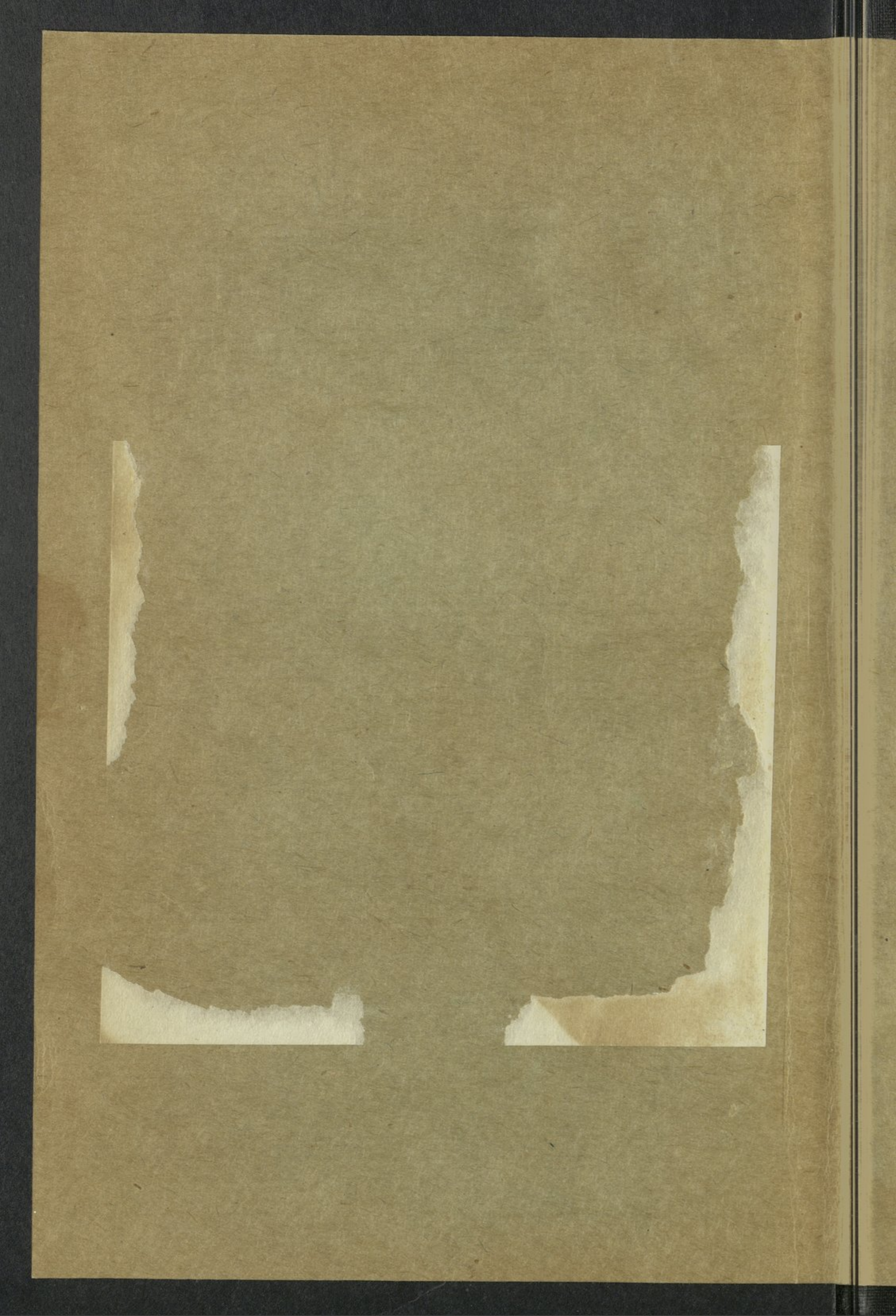
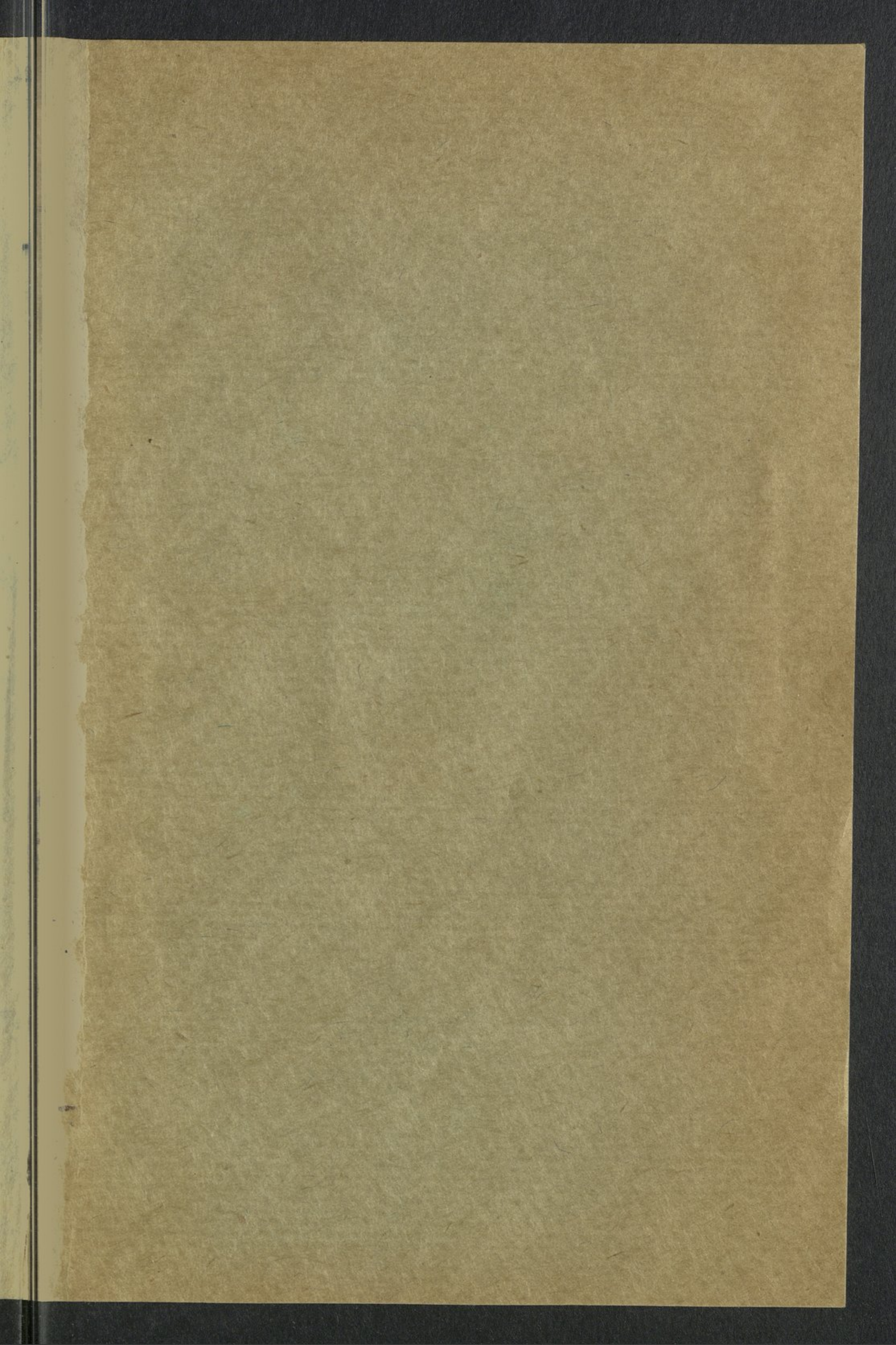
عبقريات شاميه

الكيلاني







عبقريات شامية

الطبعة الأولى

شهر رمضان ١٣٦٥ - آب ١٩٤٦

ابراهيم الكيلاني

923.2
K231aA
C.1
AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY OF BEIRUT

عبقريات شامية

في الحكم، والسياسة، والادارة

اسعد باشا العظم

احمد عزت باشا العابد

علي رضا باشا الركابي

مكتب النشر العربي بدمشق



كل الحقوق محفوظة لمكتب النشر العربي بدمشق

كلمة المؤلف

من عظماء التاريخ من ملأ الدنيا وشغل الناس ، ومنهم من بقي — على توفر اسباب العظمة والشهرة فيهم — في زوايا الخفاء والاهمال .

ذلك أن مؤرخي العصور الحديثة رغبوا في دراسة عصور الارتقاء والازدهار ، بقدر ما اهملوا او تغاضوا عن دراسة العصور التي اطلقوا عليها اسم عصور الانحطاط والعصور التركية . وقد امتد هذا الاهمال حتى شمل العصور الحديثة ؛ وفي هذه السنة المتبعة ، التي لم يشذ عنها الا القليلون ، محاذير قومية وعلمية عديدة ، لان تاريخ امة يجب ان ينظر اليه وحدة لا تتجزأ ، لا مجال للتفاضل والتمييز بين ادواره المضيئة والمظلمة ، اذ هي سواء في الدلالة على « احوال الماضين من الامم » ، وبخاصة فقد ثبت لدى المشتغلين بعلم التاريخ ان شخصيات عدة أحاطها التاريخ بهالة من العظمة ، لم تكن من العظمة في شيء ، بل كانت تستمد عظمتها الوهمية من العصر الذي غمرها بنوره وبهائه وروعته .

وكذلك القول في العصور الحديثة ومن نبغ فيها من المعاصرين ؛ فقد

أحجم المؤرخون عن البحث فيها ، وان اقدموا فبكل حذر وحيطة ، لاعتقادهم ان المعاصرين لما يدخلوا في حوزة التاريخ ، وانه لتعدد الصلات والاسباب والمنافع الدنيوية التي تربطهم بأهل زمانهم ، يتعذر اصدار احكام عادلة ومجردة عنهم . فكان من جراء هذه النظرة ان طمست معالم شخصيات معاصرة لها قيمتها ووزنها ، وضاعت علينا مصادر ثمينة من مصادر تاريخنا السياسي والقومي .

ان تاريخنا السياسي في ادواره الاخيرة حافل بالمغمورين المنسيين المجهولين ومن هؤلاء ثلاثة ابطال شاميين ، خرجوا بمواهبهم النادره عن مستوى الجماعات في عصرهم ، وهم : أسعد باشا العظم حاكم الشام في القرن الثامن عشر ، وعزت باشا العابد امين سر السلطان عبد الحميد الثاني ، وعلي رضا باشا الركابي رئيس الوزارة الفيصلية الاولى وحاكم دمشق العسكري .

ومن الغريب ان اختلاف نفسيات هؤلاء الثلاثة ، وتفرد كل واحد بناحية من نواحي النبوغ الحكمي والسياسي والاداري ، قد اجتمعت فيهم خصائص وحدت بينهم ، منها : وجودهم في عصور مضطربة سادت فيها الفوضى ، تلك العصور التي يكثر فيها ظهور النابغين والمغامرين المطبوعين على الجرأة والاقدام والاستهانة بالاخطار ، ومنها ، وهي الاهم في نظري ، أن سيرتهم تمثل القيم التي ينزع اليها الخلق الشامي طوال العصور .

ففي سيرة أسعد باشا يظهر نزوع الشاميين ، ككل شعب وديع مسالم ، الى التنعم بالامن والطمأنينة ، والميل الى الانشاء والبناء ؛ فبلادنا التي كانت دوماً هدفاً للطامعين والمدمرين والمتغلبين ، والتي ذاقت من الظلم والشقاء ألواناً ، تجد النزعة الى الهدوء والاستقرار والطمأنينة على المال والروح ، مثلاً من مثل حياتها الاصيلة . ومن يمعن النظر في سيرة أسعد باشا يجد أن الرجل على ما اشتهر به من قسوة اقتضتها طبيعة العصر ، كان يعبر عن ميول الشعب

من اقرار النظام ، والقضاء على الفوضى واللصوصيـة ، وشغب الطبقـات العسكرية الانكشارية والمرتزقة .

أما عزت باشا العابد فيمثل جانبا من جوانب الخلق الشامي في ذكائه وألمعيته ونباهته . صفات تستوجبها مهنة السياسة ومصاحبة السلطان. فالشامي ذكي ، فيه رقة ودماثة مع ادب وكياسة ، اصبحا مع مرور الزمن واستيلاء الفدامة والجلافة على طباع اغلب الشعوب ، عيباً من عيوب الخلق الشامي ، فعزت باشا الذي اوتي النصيب الاوفى من هذه الشمائل ، توصل الى شق طريقه الى ذروة النجاح وسط بحر عجاج بالمؤامرات والدسائس التي امتاز بها العصر الحميدي .وحسبه انـه ظـل يسير السياسة العثمانية على مرأى من اساطين السياسة الاوربية ودهاقينها المجتمعين في عاصمة آل عثمان .

اما الركابي باشا فهو يمثل الاستقامة والنزاهة في الادارة ؛ فالامة السورية افقدتها عهود الفوضى والظلم ثقتها بالحـكام، لاتزال تموج في أعماق نفوسها رواسب من حب الـكمال والنزوع اليـه ، حتى اصبح نشدان النزاهة في الحـكم ، والاستقامة ، وحب العدل وكره المحاباة ، ونقاوة اليد والوجدان ، من مقومات الخلق الشامي ؛ يشهد على ذلك ميل الشاميين الطبعي للنقد والشكوى وعدم الرضا عن الاوضاع الحاضرة . وقد حقق الركابي ، الى حد بعيد ،هذه الرغائب الشعبية الباطنة . غير أنه — لسوء حظه وحظ مواطنيه — وجد في عهد انقلاب سريع ، تكشف عن مساوىء الحـكم التركي الانحلالي ، وخضع لتيارات الاستعمار الاوربي العنيفة ، مما جعل أثر هذا الرجل في عالم الاصلاح ضئيلا . ولو طال العهد الفيصلي اكثر مما طال ، ولولم تشرد السياسة الاستعمارية الركابي ، لـكان له شأن غير هذا .

ان البحث عن حياة المعاصرين لايخلو من صعوبة: لتعدد المنافع ، واشتباك

المصالح وخضوع الناس في أحكامهم للعوامل الذاتية التي تخفي الحقيقة عن الباحث المجرد . وقد بذلت جهداً في التمييز والترجيح بين الاخبار والحوادث المأثوره عن الركابي باشا ؛ فقد أحبه ناس فرفعوه الى السماء ، وكرهه آخرون فوضعوه على الغبراء . وقليل هم الذين التزموا الحياد والانصاف .
ذكر لي احد سراة دمشق وكبار موظفيها القدماء انه خير من يزودني باخبار الركابي لأنه كان صديقه ولصيقه . فذهبت اليه ، فما كاد يعرف رغبتي التي جئت من أجلها ، حتى ثار وغضب ونعت الركابي بنعوت أخفها وطأة مسايرة الأجنبي ، وتنفيذ خططه الاستعمارية !! وقد فهمت بعد ذلك أن هذا الرجل من ضحايا النزاهة الركابية في العهد الفيصلي ، وأنه أقصي مدة من الزمن عن الوظيفة لتقصيره في واجبه ، واستغلاله مركزه في أوجه غير مشروعة ، مما عاد عليه بالضرر في راتبه التقاعدي !

ان سيرة الركابي يجب ان تكون مثالا لمن يتصدى للادارة ، وخدمة الدولة والشعب معاً .

أرى لزاما علي أن أشكر المحامي اللامع الاستاذ داود التكريتي صاحب مكتب النشر العربي لطبعه هذا البحث طبعة تدل على ذوق واناقة .

ابراهيم الكيلانى



في الحكم، والسياسة، والادارة.

١ - أسعد باشا العظم

٢ - أحمد عزت باشا العابد

٣ - علي رضا باشا الركابي

- ١ -

اسعد باشا العظم

حاكم الشام في القرن الثامن عشر

يؤلف القرن الثامن عشر حلقة في سلسلة عصور الانحطاط والهوان التي تعاقبت على الشرق الاسلامي . كانت الدولة العثمانية يومئذ في أوج توسعها ، وهي على ترامي أطرافها الشاسعة لا تربط بين اجزائها رابطة ، ولا تجمع بين أجناس شعوبها المتغايرة جامعة . حتى صار هذا الخليط من الشعوب عاملا من عوامل ضعف الدولة العثمانية الذي أدى بها فيما بعد الى الاضمحلال والتلاشي .

كان يشغل ساسة الدولة في هذا العصر أمران : أولهما دفع الغزوات التي كانت تسيرها روسية وأوربا على الدولة بين آن وآخر ، وثانيهما : القضاء على الفتن الداخلية التي كان يشب أوراها في فترات متقطعة في انحاء المملكة . ويفيدنا التاريخ أن عناية رجال الدولة كانت موجهه الى دفع الغزو ين الاوربي والروسي ؛ أما داخل الولايات العثمانية ، حيث استشرى الفساد و عمت الفوضى ، فان الدولة كانت عاجزة عن الفوز بولاء رعاياها والاطمئنان اليهم حتى اذا

استعرت الفتن عمدت الى سياسة التفريق والمراوغة والايقاع بين الرؤساء والحكام وتحريض الزعماء على الاقتتال والتغالب . وكانت اذا توجست طارئة من وال أو حاكم ، وخشيت امتداد نفوذه سلطت عليه الخصوم والاقارب والجوار ، الى ان يحين مصير القوي من هؤلاء فيلاقي ما لاقى سلفه .

كان من تقاليد الحكم والادارة في الدولة العثمانية، اذا فتحت بلاد جديدة، اسناد المناصب العليا الى ولاة أتراك ، والاعمال الدنيا الى أهل البلاد على أن يكون للوالي الحرية المطلقة في التصرف بشؤون البلاد . ولما كانت المناصب والرتب تباع جهرة في ذلك الزمن كان أغلب الطامعين بالولاية هم من المغامرين المتعسفين الذين لم يتورعوا عن التصرف بالامور بمقتضى الهوى والتحكم، توصلا الى تحقيق المنافع وجمع الاموال بحق وبغير حق . وكان من دواعي الفوضى وسوء الادارة وتمكن الاستبداد، قلة المواصلات ووعورة المسالك وضعف الادارة المركزية وبعدها عن الولايات ؛ ولذا ظلت الولايات العثمانية تحت رحمة الحكام والولاة ، يجرون أحكامهم على الهوى دون رقيب أو حسيب ليس لهم من وازع الا ضمائرهم ولا ناه الا أخلاقهم ؛ أما اذا كانوا ممن تجردوا عن المروءة وحرموا الوجدان فهناك الشرور والآثام مما لا يستطاع تسطيره !

كانت حكومة العثمانيين في سوريا أيام أسعد باشا النظم استبدادية عسكرية ، وأعني بذلك ان البلاد كانت خاضعه لسلطة طبقات عسكرية متغلبة تنقاد وفق مشيئة رؤسائها وأهوائهم . ولكي ندرك حقيقة الذهنية التي كانت تقود هذه الجماعات، وجب أن نعرف الاسس التي قامت عليها أنظمتهم والاساليب التي اتبعوها في حكم البلاد التي دخلت في حوزتهم .

لما عصفت جحافل السلطان سليم الاول بجيوش قانصوه. الغوري سنة ٩٢٢هـ وفتحت امامهم أبواب سوريا نظر الغزاة العثمانيون الى أهلها نظرة غانم الى

غنيمة ملكت بقوة السلاح ؛ وشرعة العثمانيين شبيهة بشرعة الغزاة الفاتحين وعلى نهجهم تكونت مجتمعاتهم البدائية : ففي سهول منغوليا حيث نصبت في الزمان الغابر مضارب وخيام قبائلهم الحربية التي عاشت في ظل النظام القبلي القائم على الاقتحام والتوثب ،تكونت الصفات الازلية لنشوء الدولة العثمانية التي طفرت بلا تمهيد من دور البداوة الى دور الحضارة .

لم يكن للعثمانيين من غاية سوى الاحتفاظ بثمار الفتح والاستئثار بها واستخدام السكان وتسخيرهم في انماء هذه الثروة ، وكانوا ينظرون الى الشعوب المغلوبة نظرة استهانة واستخفاف ، ولا يبلغن بك الظن أن هذه النظرة موقوفة على الرؤساء وحدهم ، بل انتقلت بخصائصها وصفاتها التحكمية من الآمر الاول الى جميع المرؤوسين على اختلاف مراتبهم حتى اكتسب المرؤوس في النهاية صفة الرئيس ، فاصبحت شخصية السلطان ، الحاكم الاعظم،ممثلة في الباشا والمتسلم والقائمقام والآغا الانكشاري ، وهكذا كلما تسلسلت السلطة وتدنت في فروع المراتب الاجتماعية والادارية ارتفعت منها فكرة العدل والرحمة فاصبحت قاسية مستبدة . وحكم العبد اذا ساد اشد وطأة ومضاضة من حكم السيد نفسه .

كان أول ما يشغل بال الباشا اذا ولي ولاية استنباط الوسائل المجدية لجمع اكبر كمية من المال في أقصر مايمكن من الزمن ؛ وقد جرت العادة بتلزيم جميع هذه الاموال الى ملتزمين واعطائهم السلطة المطلقة على المكلفين يحملون الفقراء منهم مالا طاقة لهم به من ضروب الظلم اشباعا لنهمهم ونهم رؤسائهم الى المال حتى ركنت الطبقة العاملة المنتجة من الشعب الى الخمول، مكتفية من وسائل العيش بما يقيم الاصلاب ويدفع غائلة الموت فنضبت الثروات ، واختل نظام الاعمال وتأخرت المهن والصناعات . وكأن الناس لما غفلت الحكومة عن حماية مصالحهم وسلطت عليهم الحكام الجائرين والاوباش الاغراب من الجند لم يبق في نفوسهم اثر من حب أرضهم فضعفت فيهم اسباب

الهمة ، وماتت قلوبهم من الظلم فهجروا بلدانهم وقراهم حتى قل عدد السكان في الشام بصورة مروعة ، وقيل انه كان في غوطة دمشق اواخر عهد المماليك ثلاثمئة وخمسون قرية ، ولما غادر العثمانيون البلاد كان في الغوطة نحو ستين قرية فقط . ويقال انه كان في حلب قبل الفتح العثماني ثلاثة الاف ومئتا قرية تدفع الخراج فهبط عددها في هذا العصر الى اربعمئة قرية . ويتحدث الرحالة الفرنسي فولتاي نقلا عن احد معتمدي الاجانب أنه شاهد طوال عشرين سنة من مكثه في سورية بلاداً وقرى كانت فيما مضى زاهية عامرة قد هجرها اهلها واصبحت بلاقع لم يبق من رسومها الا جدران مهدومة وآبار مردومة وحقول مهجورة تبعث الى القلب الحسرة والأسى.

الحق أن هذه الفوضى التي غشيت الولايات العثمانية مردها الى سببين: اولهما جهالة الامم المحكومة وتقهقرها لاجتماعي والاخلاقي واخلادها الى المذلة والمسكنة لكثرة ما انتابها من النكبات منذ اقدم العصور مما دعا الولاة الى التمادي في العدوان، وثانيهما فساد الأمور في عاصمة آل عثمان ، فقد اجمع مؤرخو الترك انفسهم على أن الحل والعقد كان في هذا العصر بيد جماعة اتقنت فن الدسائس والبراعة في استدرار اموال الرعية كي تنعم بحياة السفه والطيش التي تحياها في العاصمة . وقد بلغت الأحوال من السوء أن اقصيت الكفاءات وتولى امور الدولة المقربون من الحاشية والندامى والزنوج الخصيان، وأصبح القول الفصل في القصر السلطاني للجواري والسراري يعملون جميعاً في الخفاء على ادارة سياسة الدولة ، ينصبون الوزراء والحكام ويعزلونهم ، وعلى قدر الوسائط واجزال الرشوة يكون الارتقاء في المناصب وبلوغ الأماني.

كان الباشا صورة مصغرة عن السلطان ، فهو الحاكم المطلق يتصرف بحقوق الرعايا بلا خوف تبعة ، يقبض على السلطتين الادارية والتنفيذية ، بيده حق الموت والحياة ، واشهار الحرب واقرار السلم ، كما أنه معتمد السلطان في تحصيل الخراج والضرائب والاتاوات المقررة . وبقاؤه في ولايته منوط بما

يقدمه الى خزينة الدولة من الأموال الموكول اليه جمعها ، وما يؤديه الى حاشية السلطان من وزراء ومقربين وخدام على سبيل الاستمالة والاسترضاء ليذكروه عند السلطان ويخاطبوه في حاجاته .

كان حاكم الشام يتمتع بالافضلية من بين حكام الباشويات الخمس وهي باشوية حلب وطرابلس وصيدا وفلسطين ، ولعل امارة الحج ، وما لهذه الفريضة المقدسة من اعتبار في العالم الاسلامي ، اثر في هذا التفضيل . وكان الباشا بحكم منصبه مكلفا بنفقات الحج وما يتطلب من مؤن وغلال وأجور المطايا وعلفها ، كما أنه ملزم بدفع مبالغ مقررة الى قبائل العربان لحماية طريق الحج . وهو أيضاً موكل بتقديم ارزاق الجند من الانكشارية وحراس القلاع والحصون الواقعة على طريق الحج . وفي مقابل هذه النفقات يتصرف الباشا بالدخل العام . ومن الغرائب ان الباشا هو الوارث الوحيد للحجاج ؛ وقد عجب الرحالة فولناي من ان اغلب الحجاج الذين ماتوا في الحج كانوا من الاغنياء !

يقدر عدد القوات المسلحة الموضوعة تحت امرة الباشا بستة الى سبعة الاف انكشاري عرفوا بالقحة والتطاول على الناس يعضدهم جماعات أخرى من الدالاتية ولاوند الاكراد والسباهية والمغاربة وغيرهم من المرتزقة المعروفين بميلهم للسلب والنهب. وقد وصفهم الرحالة فولناي بقوله : « كانوا يتمنطقون السيوف القصيرة « والطبنجات » ، ويتنكبون الرماح والبنادق التي علاها الصدأ ، ويضعون على رؤوسهم المحلوقة قلانس طويلة من الجوخ الاسود ليس لها حواش لرد اشعة الشمس ، مرتدين ثياباً خلقة ، وممتطين الخيول المختلفة الحجوم والطول والالوان ، حتى يخيل للناظر أنهم اشبه بفلول قطاع الطرق ، منهم بجنود وكل اليهم حفظ الامن ؛ ولا ريب في ان لعادات التلصص التي درجوا عليها وحذقوها منذ نشأتهم ، أثراً في ترسيخ روح الاعتداء والبطش التي رافقتهم بعد انتقالهم الى الجيش » .

امتاز هذا العصر بظهور أسرة العظم الشهيرة التي تعاقب رجالها على الحكم طوال خمسين عاماً ؛ وأشهر افرادها وأخلدهم ذكراً وأطولهم في الحكم زمناً، هو اسعد باشا العظم . ان تفاصيل حياته تكاد تكون مجهولة، ومن الغريب ان مؤرخي عصره اهملوا ذكره مع انهم ترجموا لمن هم أقل شأنامنه. ومع ذلك فقد عثرت في كتب التراجم على أخبار ضئيلة كافية لايجاد ترجمة موجزة للباشا المذكور . اما حوادث ولايته فهي مذكورة في مؤلف مخطوط لرجل يدعى البديري الحلاق وهو عبارة عن يوميات كتبت بلغة تقرب من العامية أودعها صاحبها ماشاهده وما سمعه في عصره ، فهي مصدر ثمين لدراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية زمن ولاية اسعد باشا؛ وعلى هذا المخطوط كان اعتمادي في اعداد هذا الحديث .

من هو أسعد باشا العظم ؟

هو اسعد بن اسماعيل بن ابراهيم العظم ، ولد بمعرة النعمان سنة ١١١٧ للهجرة : وكان والده اسماعيل أول من دخل الشام من أسرة العظم؛ يقال ان أصله من قونية وانه جاء دمشق واستوطنها الى ان توفي فيها تاركا ثلاثة اولاد: سعد الدين وأسعد ومن سلالتها آل العظم في دمشق وحماه، وابراهيم وسلالته في معرة النعمان. ويظهر ان اسعد كان اكثر فطنة وألمعية من اخويه حتى صار متسلماً لابيه (المتسلم هو وكيل الباشا او الوالي في حال غيبته عن مقر ولايته) . وكان اسماعيل باشا والد اسعد موكلا ببعض امور الدولة المالية ، فامتحن بسببها هو وابنه ثم افرج عنهما بعد ظهور براءتهما . وأمرت الدولة اسعد باشا بالذهاب مع والده الى خانية عاصمة كريت فاستعفى لعلة كانت به، فأعفي ،وبقي عندعمه سليمان باشا حاكم باشوية طرابلس . ولما أنعمت الدولة على سليمان باشا « بمالكانة » حماه وتوابعها، ذهب اسعد معه واظهر نشاطاً عمرانياً فعمر كثيراً من الدور والخانات والحمامات مما ليس له « نظير في بلاد الشام » فانعمت عليه الدولة لقاء هذه الجهود برتبة « روملي » وصار جرداوياً لأمير

الحج علي باشا الوزير سنة ١١٥٣ هـ ، ثم تولى باشوية صيدا فلم يطق الاقامة بها فاستقال فنقل الى حماه سنة ١١٥٤ هـ ؛ وفي سنة ١١٥٦ تولى دمشق وامارة الحج بعد وفاة عمه سليمان باشا ودخل دمشق، كما يقول البديري، يوم السبت في الخامس والعشرين من شعبان سنة ١١٥٦ هـ « من مسجد الاقصاب وهي المحلة المعروفة عند اهل دمشق بمز القصب ، دخل اسعد باشا بموكب عظيم من الانكشارية وأكابر دمشق وأعيانها وبقي في دمشق خمس عشرة سنة، ثم عزل عنها، وولي حلب ثم جاءه فرمان بان يذهب الى مصر والياً « فمصت به أهل حلب وقالوا : لانريد غيره ، وكاتبوا الدولة العلية بذلك فقرر بحلب الى اوائل سنة ١١٧١ هـ ثم عزل وولي سيواس ، فرحل اليها وهو يقدم رجلا ويؤخر اخرى ، فدخلها في اواخر ربيع الاول ، ثم في ثامن رجب من السنة المذكورة وصل الامر العالي عن يد محمد آغا الاورفلي رئيس البوابين بالباب العالي بالقبض على اسعد باشا ونفيه الى جزيرة كريت فاخرج من سيواس الى الجزيرة فقتل في مدينة انقرة ليلة خامس شعبان سنة ١١٧١ هـ - ١٧٥٧ م داخل حمام . وقد تعددت الروايات عن سبب قتله فمن قائل ان اسعد باشا حرض العربان على سلب قافلة الحجاج انتقاماً من خلفه حسين باشا مكي زاده الغزي ، ومن قائل، وهو الاصح في نظري، ان حسين باشا المذكور اختلف مع الاعراب الموكلين بحماية الطريق على المال المقطوع لهم، ففتكوا بجنوده واعملوا بالحجاج القتل والسلب والسبي ، ومات كثيرون منهم جوعاً وظماً وبرداً حتى بلغ عدد الضحايا اكثر من عشرين الفاً . ويصف لنا البديري الحادثة كما لهج بها أهل دمشق يومئذ فقال : « ... وأخبروا عن الاحوال التي حصلت للحجاج من النساء والرجال من شر كفار العرب ، ولا شك في ان هذه الافعال التي فعلت فعلها في الحجاج لايفعلها عباد النيران : لانهم اخبروا انهم كانوا يشلحون الرجل ويفتشون تحت ابطيه وفمه ، وان وجدوا الرجل كبيراً بطنه بقروا بطنه ، وكانوا يدخلون

ايديهم يعبثون بها بعورات الرجال والنساء على السواء ، وقد كانت النساء يضعن على عوراتهم الطين للتستر ، وخاصله صدرت من العرب امور ماسمعت من قديم الزمان ولا من عباد الاوثان . ثم ماسلم من التشليح الا الذين هربوا امام الحج ، وان الباشا امر من حوله بنهب خزنته فنهبوها ، فناس سلموا ، وناس قتلوا ؛ ثم اقام الحجاج اربعة ايام لاماء ولا زاد ومنهم من مات جوعاً وعطشاً وبرداً وذلك بعدما شرب بعضهم بول بعض ، وما كفى جور العربان بل زاد عليهم جور أهل معان غضب الله عليهم ولعنهم واعد لهم عذاب النيران ».

ولما ذاع الحادث في انحاء الدولة العثمانية وتناولته مخيلة الناس بالزيادة والنقصان ضج الدمشقيون ومن بينهم التجار الذين فقدوا اموالهم في الجردة وطلبوا معاقبة المسؤولين، فالصقت التهمة باسعد باشا حتى آل امره الى ما آل . وبعد ايام من الحادث « جاء قبجي من جهة الدولة وختم سراية اسعد باشا ، وضبط ماله، وختم بيوت جميع أتباعه وأعوانه وضبط مالهم ورفعهم الى القلعة ، ثم جاءت اتباع الباشا ودخل القبجي الى السرايا فاخرج الدفائن العظيمة من سرايته فاذا هي كالكنوز ، فأخرجوا من الارض والحيطان والسقوف والاحواض حتى من الادبات دراهم ودنانير وامتعة نفيسة لاتقام بقيمة ومجوهرات مما لايعلمه الا الله تعالى . » ويقدر الرحالة الفرنسي فولناي (وكان معاصراً لاسعد باشا) الثروة المصادرة بثمانية ملايين من الفرنكات الذهب . هذا وقد كثرت المصادرات في هذا العصر حتى الفها الناس ،فصاروا يدفنون مايملكون من النقود وغيرها في الاخاديد والمخابىء ، ويكتمون الامر حتى عن أقرب الناس اليهم . وكان أغلب من يصاب بالمصادرة الكبراء والحكام والمشتغلون بالصرافة والربا ، وقد ظن اسعد باشا وكثيرون من الباشوات الذين هلكوا واستخرجت الدولة اموالهم، ان المال مدعاة للسلامة والطمأنينة ودرءاً يقيهم بطش السلطان وصروف الليالي ، ولم يفطنوا الى انه جالب للمعاطب

وصنوف البلاء . ومن الغريب ان الدولة كانت تعبر عن سخطها على الحكام المتمولين الذين استنزفوا في نظرها اموال الشعب بقتلهم ومصادرتهم ؛ ولكن رجالها لم يفكروا يوماً برد هذا المال الى مالكيه الاولين ، كما تفعل الحكومات العادلة، وكما يقضي بذلك الحق والانصاف .

كان أسعد باشا شجاعاً ، قوي القلب ، بطاشاً ، طائش السيف هجوماً على الامور لايبالي بما صنع ، رويت عنه اخبار في محاربة الخارجين على الدولة تدل على جرأة بلغت حد التهور والمخاطرة، أيسرها مباشرته المعارك بنفسه متقدماً جنوده في ساحات الوغى ، وكان قتالا تهون عليه الدماء ، ولا ريب في انه كان متأثراً بروح عصره الذي غلبت على الناس فيه القسوة والاستهانة بالارواح حتى صار قتل الانسان من الامور التي لاتنكر ! شكا اليه رجل يوماً سوء طاعة ولده فغضب الباشا وأمر بان يؤتى بالولد العاق ذليلا مهاناً وفي المساء « خنق ورمي ! » ونظير هذا ماصاب فتحي افندي دفتر دار الشام ، وكان هذا قد تولى مصادرة عمه سليمان باشا وتعذيب اهله وحرمه واتباعه « وضع في رأسه حبل وسحب الى خارج السرايا ، ثم قطع رأسه وأمر بان يطاف بجثته في سائر شوارع الشام وطرقها وازقتها ثلاثة ايام ففعل به ذلك ، وطيف به عرياناً مكشوف البدن وتركوه للكلاب، ثم دفنت جثته بتربة الشيخ رسلان، وأمر الباشا بالاحاطة على داره وعلى ماله والقبض على اعوانه » .

وكان أسعد باشا الى جانب هذه الشدة حقوداً ، بلغ من حقده على الامير ملحم والي بعلبك « انه كان اذا وصل اليه عرض من الامير المذكور يضع اصبعه على التوقيع كي لايقرأه » . لم تكن أيام أسعد باشا بافضل من ايام اسلافه والحق انه كان يتمتع بصفات ومزايا ذاتية أفردته عن جمهرة الباشوات الذين تعاقبوا على هذه البلاد . ومن مزاياه المستحسنة التي حفظها له التاريخ انه كان شديد الوطأة على اعداء الامن فقد ضبط الامور بحزم ، وحمى السابلة، وتتبع المفسدين فأبادهم ، ولكنه لم يكن من ناحية اخرى الا منفذاً

أميناً للسياسة العثمانية الخرقاء القائمة على الفوضى المنظمة وسوء الادارة التقليدي واستبقاء النفوذ الحكومي بالجور والارهـاب . وكان اشد ما عانته الشام في هذا العصر من ضروب الفساد ، تغالب الطبقات العسكرية من انكشارية ودالاتيه وسباهية وعناتبية وقبقول وغيرهم . وكان ضرر الفتن التي تحدث يقع دوما على الاهالي . ولعل روح التمرد التي عرف هؤلاء الجنود وضآلة رواتبهم وحاجة الباشوات الاسرافية الى المال، دعتهم الى التقتير على الجنود والتغاضي عن طغيانهم واعمالهم التخريبية . قال البديري في حوادث سنة ١١٥٨ هـ :
« ارسل اسعد باشا يطلب الدالاتية طلباً حثيثاً ، فلما رأت الانكشارية ذلك ضاقت عليهم الارض وقالوا : ان اسعد باشا يريد ان يغدر بنا وهـذا الامر لا يخوفنا ، ثم زادوا بحمل السلاح ونهب المال وسبي العرض وسب الدين وغير ذلك من الفظائع . وفي يوم الاثنين ثاني عشرين صفر من سنة ١١٥٨ هـ بينما الناس قبل الظهر في اشغالهم واذ بضجة عظيمـة وضرب بارود، فقيل : ما الخبر ؟ قيل ملكت الدالاتية القلعة فسكرت البلد وزاد الفزع في كل أحد. ولما بلغ الخبر للانكشارية قاموا على قـدم وساق وقالوا : اخذت منـا القلعة يا شباب واجتمعوا في باب الجابية بالسلاح الكامل ينتظرون القتال . ولمـا وصل الخبر لحضرة اسعد باشا فرح واستبشر ونادى : اطلبوا سوق ساروجة وجدوا في الطلب! وامرهم ان يتركوا جهة القبلة وكان ذلك حيلة منه وخدعة. ثم نادى في عسكره نداء شاع في البلد بان مرادي احمد بن القلطقجي وعبدالله ابن حمزة ومن لهم من الاتباع ـ وكانا من رؤساء وامراء سوق ساروجه ـ هذا والجنك يلعب بسوق ساروجه ؛ وكأنه لم يكن حاكم بالشام الا هم ، فأراد الله تدميرهم . ثم امر حضرة الباشا ان يوجهو المدافع على سوق ساروجـة فوجهوها وامر بضربها بالكلل فضربت ؛ فما كان بأقل من حصة يسيرة حتى احترقت الدور وانهدمت البيوت ، واحترق بيت ابن القلطقجي وهدم عن آخره ونهبت العساكر كل ما فيه ثم سرى النهب الى بقية البيوت فنهبوا ومثلوا

وبدعوا وذهب الصالح والطالح حتى صارت محلة سوق ساروجة قاعاً صفصفاً. واما ابن القلطقجي فانه فر هارباً بعد ما بذل وجماعته من الشجاعة الغاية القصوى . ثم امر حضرة الباشا بان تدار المدافع على جهة الميدان فوجهوها ، وكان رأس المفسدين فيها مصطفى آغا بن خضري شربجي حتى سمى نفسه سلطان الشام وعنده زمرة من الاشقياء يتقوى بهم . وبها ايضاً اولاد الدرزي احمد آغا وخليل آغا ولهم بها صولة ودولة . فحين بلغ هؤلاء المفسدين بان حضرة اسعد باشا وجه عليهم العساكر بالمدافع أوقع الله الرعب في قلوبهم وركنوا الى الفرار وطلبوا البراري والقفار ، وبانهزامهم تقطعت قلوب بقية من كان من شجعان أهل الميدان ، فمنهم من هرب ولحق بساداتهم ، ومنهم قبر في المغاير والقبور ، ومنهم من غطس في النهور . ولما وصلت الميدان المدافع لم يجدوا فيها من يدافع . فأول ما اشتغلت العساكر بهدم دار ابن خضري بعدما نهبوا جميع ما فيها ، وكذلك فعلوا بدار ابن حمزة وبغيرها من الدور حتى نهبوا نحواً من خمسمائة دار وبعد ذلك اشتغلوا بهدم الدور التي نهبوها .
وأرسل اسعد باشا ـ أسعده الله وقواه ـ الى مشايخ الحارات وأئمتها بان يقبضوا على بقية الاشقياء الموجودين ، وان لم يفعلوا يلزمهم بغرامة اموال عظيمة ، فصاروا يتتبعون الاشقياء واحداً بعد واحد ويقولون لحضرة الباشا: هذا الشقي الفلاني، وهذا الآغا الفلاني ، وهذا الشربجي الفلاني، وحضرة الباشا يأمر بضرب اعناقهم امام باب السرايا وترك اجسامهم تأكل منها الكلاب مدة طويلة حتى صاروا عبرة لمن اعتبر . فسكنت بعد ذلك الشام وصارت كقدح لبن . وقد امنت البرية بعد ما كانت تقول كبراء الميدان واعوانهم : لو جاءنا عشرة باشاوات ومعهم السلطان ما حسبنا لهم حساب . فانظر الآن فقد صاروا أذل من الذباب وطعما لأخس الكلاب ... وقد زينت البلد والمدافع تضرب صباحاً ومساء مدة شهرين والنوبة مع الالعاب النارية وفي ذلك قلت :

أين الزلاقة التي كانت شبيه السيف جزمات لايشلحوها بالشتا والصيف

ان شاف واحد صديقه لا يقله كيف ديك الزلاقة مضت يا حيفها ياحيف!»

الى جانب هذه الفوضى المروعة ، كانت الشام تقاسي مساوىء الانحلال الاجتماعي وصراع الأقليات والعصبيات الجنسية والدينية التي كانت تستحيل دوما الى فتن اهلية تجري فيها الدماء وتزهق فيها الارواح . قال البديري : « وفي ليلة الرابعة والعشرين بعد صلاة التراويح قتل كردي يقال له قرامصطفى في الحدرا ولم يعلم غريمه ، فاتهموا فيه رجلا بغداديا ، فتسلحت الاكراد ونزلت حتى وصلت الى الدرويشية وباب الجابية لعلهم يصادفون احداً من البغاددة ليقتلوه فلم يجدوا ، وكانت الخلائق في الدرويشية صفوفاً والوفاً فبهجوم الاكراد تفرقوا وهربوا ودخل الخوف والرعب في قلوب الناس.»

ان امثال هذه الحوادث كثيرة اوردنا منها غيضاً من فيض؛ وكان الصعاليك من ابناء الشام يتخبطون في جهالة عمياء وبؤس شديد أراحهم من التفكير والقلق ؛ اما بقية الناس من تجار وزراع ومتمولين فقد كانوا يعيشون في حذر وخوف، موزعي القلوب، دأبهم المحافظة على ثرواتهم باخفاء علائم الترف والسعة والظهور بمظهر الفقر دفعاً للتعدي والمصادره ، وحفظ المال في عهود الاستبداد والفوضى اصعب من كسبه وقديماً قيل : درهم من الذهب يحتاج الى قنطار من العقل ، والعاقل من يخفي ذهبه وذهابه ومذهبه ؛ وما اكثر ما كان يبيت اهل دمشق خائفين وجلين على ارواحهم واموالهم . قال البديري: « في يوم الاربعاء بعد المغرب شاع خبر حتى وصل الى السرايا (وكانت السرايا يومئذ في جادة الدرويشية) بان احمد ابن القلطقجي (الذي كان من رؤوس الزرباوات والذي هرب وعصي في جبل الدروز) هاجم ليلة الاربعاء على الشام ، فما اشأمها من ليلة على أهل الشام من كثرة ما دهمهم من الخوف والرعب والسهر واخلاء البيوت والدكاكين ، وقد صفت المتاريس في جميع البوابات ، وكانت ليلة من هولها كليلة القيامة لم يذق اهل الشام بها نوما

قط وهم ينتظرون طلوع الفجر. فلما لاح لهم لم يجدوا شيئاً مما توهموه وكان الخبر كاذباً» .

ويقول ايضاً : « ولما كانت ليلة الاربعاء اجتمعت من الانكشارية جماعة في حارة السويقة ، وصاروا يقوسوا ويفزعوا الناس الى ان سكرت اهل الشام البوابات ، ولما ظهر النهار هجموا على باب الجابية وقوسوا الى ناحية باب السرايا فبلغ امرهم حضرة اسعد باشا فاغتاظ غيظاً شديداً ، وجاءت الموالي (جماعة الباشا) وعمل ديواناً ثم أرسل الباشا يطلب منهم الاشقياء الخارجين عن الطاعة فتغلظت اكباد الانكشارية وتقووا وظنوا انهم هم المنصورون ، ثم صاح الباشا في جنده وركب في نفسه وطلب جهة الميدان فلم يقف بين يديه احد وهجم هو وعسكره عليهم ، فلم يزل يضرب هو وعسكره بالسيف الى ان وصلوا الى باب الله فقتلوا منهم كثيراً ، والذي ما أرادوا قتله اخذوه ووضعوه في الجنزير ونهبت العساكر الميدان ولم يتركوا كبيراً أو صغيراً الا قتيلاً أو أسيراً ، ولم يتركوا بيتاً ولا دكاناً ولا امرأة ولا طفلا الا استعملوا النهب والسبي ، وانتكب أهل الشام نكبة في ذلك العام ما عهدت مثله من أيام التيمور ... وثاني يوم الخميس قامت جماعة الباشا الى النهب فمنعتهم وأمر بجمع المسلوبات من العساكر وغيرهم وأن يوضعوا في بعض الجوامع وأمر مناديا ينادي : كل من له منهوب فليأت ويعلمه ويأخذه فاخذوا البعض وذهب الاكثر . »

كان أسعد باشا ذا شخصية متناقضة وكان يجمع الى شدته وقسوته ميلا الى التقوى والصلاح : فقد كان ملازما للصلاة وزيارة الرسول اثناء تردده على الحرمين الشريفين ، ميالا للبناء والانشاء؛ أجرى اصلاحات جمة وأقام النظام وانشأ الدور والجسور والمرافق ورمم المساجد والمآذن . ومن الآثار التي خلدت اسمه على مدى الايام والتي تشهد برقي الزخرف والهندسة الشاميين في القرن الثاني عشر القيسارية المعروفة بخان أسعد باشا في سوق

البزورية التي قال عنها الشاعر لامرتين انها من أجمل قيساريات الشرق وان قبابها ذكرته قباب كنيسة القديس بطرس في روما . ومن آثاره أيضاً القصر الذي يشغله المعهد الفرنسي في سوق البزورية ، فقد بني في مكان دار معاوية بن ابي سفيان . يقول البديري : « اخذ الباشا ما حولها من الخانات والدور والدكاكين وهدمها ... وجد واجتهد في عمارتها ليلا ونهاراً ، وقطع لها من جملة الخشب اثني عشر الف عمود خشب ، ما عدا الذي أرسله له أكابر البلد والاعيان من الاخشاب وغيرها ، ورسم على حمامات البلد ان لا يباع قصرمل لأحد بل يرسل لعمارة السرايا واشتغلت بها غالب معلمي البلد ونجاريها وكذلك الدهانين بل قل ان يوجد معلم متقن او نجار او دهان ، والجميع مشتغلون بها . وجلب لها البلاط من غالب بيوت المدينة اينما وجد بلاطاً او رخاماً وغير ذلك مثل عواميد وفساقي يرسل بقلعها ويرسل القليل من ثمنها . وكان في قرب تربة البرامكة قصر يقال له الزهرائية ، قيل هو من عمارة الملك الظاهر وهو على نهر بانياس مطل على المرجه الخضراء انهدم وأخذ انقاضه ؛ واخذ انقاض طاحونة كانت على نهر بانياس في وادي كيوان ، ونقل من بصرى احجاراً واعمدة من الرخام شيئاً كثيراً ، واخذ من مدرسة الملك الناصر في الصالحية اعمدة غلاظاً جيء بها على عربات تجر بالبقر ، وهدم سوق الزنوطية التي فوق العمارة ، وكان كله اقبية معقودة فأمر بفكه ونقله الى داره ... »

ويظهر ان أسعد باشا قد افرغ وسعه في بناء هذه الدار وزخرفتها وتنميقها حتى شغل عن المصالح العامة وامور الناس ، وكان يرمي من وراء بنائها الدلالة على عظم منصبه واظهار ما عنده من الابهة والسلطان . قال البديري : « وكان وزير الشام مشغولا في عمارة داره ، ولم يلتفت الى رعاياه وانصاره ، ويقول : ائتوني بحجارة المرمر والرخام والسرو وتفننوا بالبناء والنقوش والتحلية بالذهب والفضة ... وكلما سمع بقطعة او تحفة من رخام أو قيشاني او غيرها يرسل يأتي بها ان رضي صاحبها أو أبى ... »

وفي سنة ١١٦٤ هـ تم بناء الدار فأقام الباشا مأدبة كبيرة دعا اليها الكبراء والوجهاء فزينت دمشق في هذا اليوم المشهود « فذبحت الذبائح واعطيت المنائح » ويجد رواد القصر اليوم نقوشاً ماثلة على الجدران تخلد تلك الذكرى نورد مقتطفات منها :

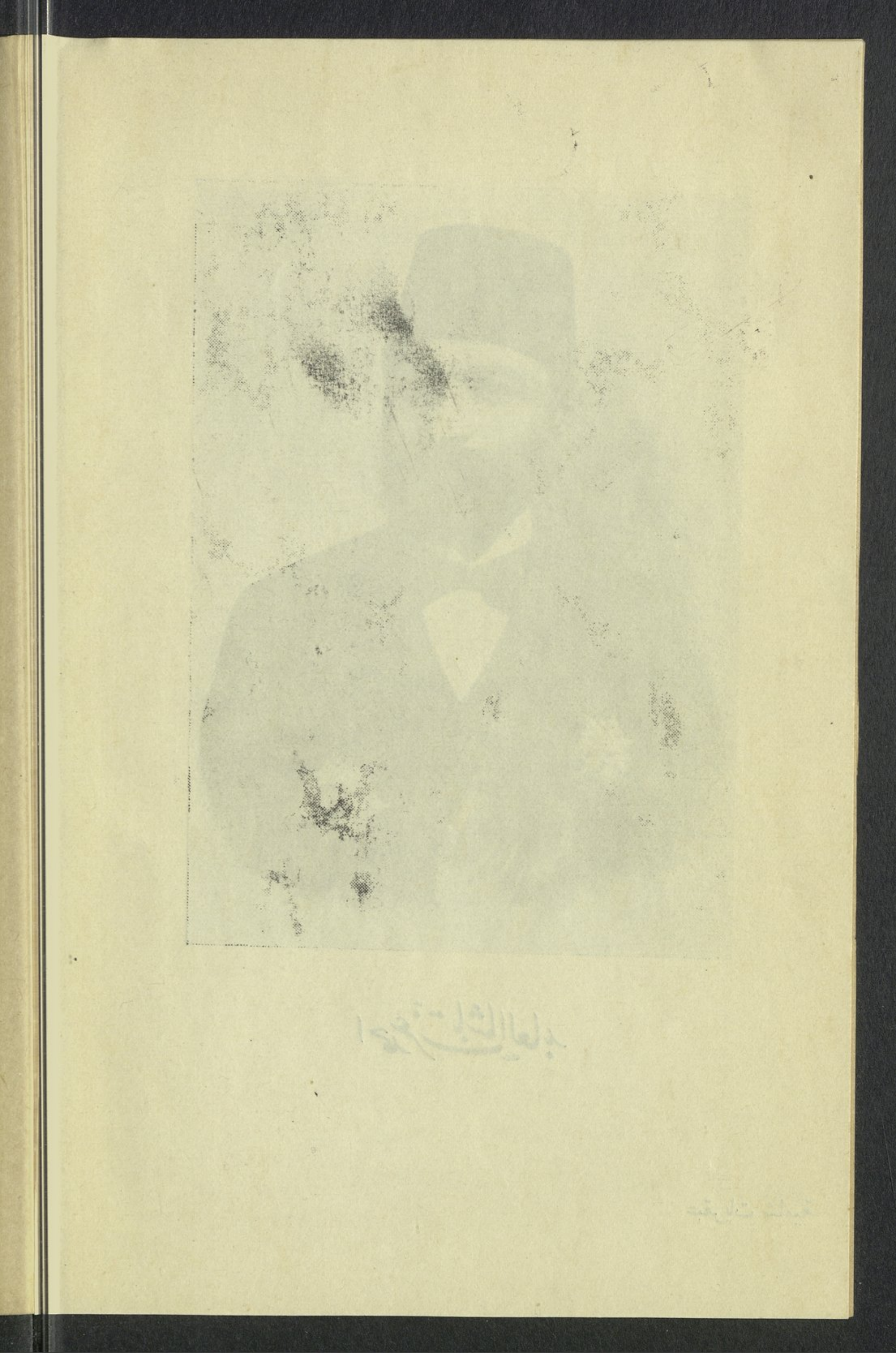
حمداً لمن منح الاحسان والجودا ... وشكره خلد النعماء تخليدا
ووفق البطل الكرّار اسعد من ... اولاه مولى الورى نصراً وتأييدا
امير حجاج بيت الله من فتح ... راياتـه لهم ما كان مسدودا
صدر الصدور الذي دان الزمان ... وبـدد البغي والعدوان تبديدا
كم فرقت عزمات منه ماضيـة ... كتائباً وجيوشاً تملأ البيـدا

ونجد أيضاً على بعض الجدران :

يا أسعـد الحـظ ويا من له ... في ذروة المجد مقام كبير
سـاعدك الرحمن رب السـما ... ودمت محروس الجناب الخطير
في دولة محفوظـة سرمـداً ... بحفظ آيات الكتاب المنير
عمرت بالتقوى ديار الهنـا ... ومأمن اللاجيء ومن يستجير
ونلت كل الخير من ربنـا ... لما له أخلص منك الضمير
يانفحة المندل من ذكره ... شرقا وغربا طاب منك العبير
يا جمـلة الناس قفوا وانظروا ... محـاسناً جلت بناهـا الامير
بيت أتى تاريخـه للمـنى ... شيده أسعد باشـا الوزير



احمد عزت باشا العابد



- ٢ -

احمد عزت باشا العابد

كاتب سر السلطان عبد الحميد

الى جانب الفوارق العديدة التي تفصل بين العنصرين العربي والتركي ، لم تكن جامعة الدين بكافية للتقريب بين هذين الشعبين ، ومحو العداء التقليدي الذي زاده جور الاتراك رسوخاً ونمواً ؛ ولذا كانت الدولة العثمانية معرضة ، طوال العصور ، لحركات انفصالية عنيفة ، وثورات عربية وغير عربية ، وبخاصة ، عندما توالت على الدولة في القرن التاسع عشر ، الكوارث في البلقان ، واشتدت وطأة الاوربيين على « الرجل العليل » .

على أن مقام الخلافة ظل في نظر العرب بعيداً عن كل تهجم ، وموضعاً للقداسة والتبجيل ؛ وكان الخليفة العثماني مناط آمال المسلمين ورمز وحدتهم ومعقد رجائهم ؛ وكان كل اعتداء تقوم به اوربا المسيحية ، يوحد بين العرب والترك ، وينسيهم مؤقتاً العداوة والبغضاء . والحق أن لشخصية السلطان عبد الحميد ومهارته ، أثراً بعيداً في ترسيخ فكرة الجامعة الاسلامية في الاذهان واعلاء شأن الخلافة في الشرق والغرب .

كان عبد الحميد يعتمد في سياسته الداخلية على البطش تارة ، وعلى المراوغة تارة أخرى ؛ وكان يرمي الى تثبيت دعائم الخلافة والفوز بولاء العرب والمسلمين ، ولو ادت هذه السياسة الى الاضرار بمصالح رعاياه العثمانيين ، وقد بلغ من حرصه على هذا الولاء ، وامعانه في تحقيق اهدافه ، أن قرب اليه زعماء العرب ، وأصبح له في البلاد العربية، بواديها وحواضرها، دعاة ورسل مبشرون ، يدعون له تحت ستار الدين والخلافة ، ويقومون بمهمة التجسس واثارة العداوات بين الخارجين على الدولة ، ممن يخشى نفوذهم أو امتداد سلطانهم .

كان العنصر العربي أكثر العناصر تقرباً من خليفة المسلمين ، حتى بات العدد الوفير منهم منبثاً في دوائر القصر السلطاني : يتولون الامور الدينية والادارية والسياسية . وكان منهم حرس السلطان ، الى جانب حرسه الخاص المؤلف من الاتراك والالبان والشركس والاكراد والجبليين . نعم ان من هؤلاء الاعاجم من تولى الوظائف الهامة ، عسكرية ومدنية ، فكان منهم الوزير والسفير ، الا ان السلطة الحقيقية كانت في يد العرب ، ألم يقل أحد المؤرخين الاوربيين « ان باب يلدز للاتراك والالبانيين وغيرهم ، ولكن داخله كان للعرب ! »

كان عبد الحميد في شبابه مندفعاً وراء اللهو ، مسرفاً في المجون والتهتك واشباع رغائبه الجنسية ، حتى كادت تتلف أعصابه ، فحذره أطباؤه من عواقب تبديد قواه ، فغير فجأة مجرى حياته ، وهجر اللهو ، وانطوى على نفسه ، مؤثراً البساطة في العيش على الرفاهية ، وانتابته حالة روحية غريبة(١) جعلته يكثر من التعبد ومعاشرة شيوخ الطرق الصوفية والدراويش ومباحثتهم ، وصار يؤمن بالسحر والطلسمات والتنجيم ، وفتحت ابواب القصر

---

(١) عندما تولى السلطان عبد الحميد قرب اليه كثيرين من مشايخ الطرق عرف منهم الشيخ محمد ظافر الطرابلسي المغربي النقشبندي مرشد الحضرة =

في أوجه الصالحين والاتقياء ، والدجالين المغامرين على السواء : يعملون كلهم على استغلال تطير السلطان وحبه للمدح والاطراء ، وايهامه بجلائل الاخطار والخارف التي تحيط به حتى أوهموه أنهم خير من يرد عنه الغوائل ويدفع الاهوال والمكائد (١)

وقع السلطان عبد الحميد اذن تحت نفوذ هؤلاء المغامرين ، وصعب عليه التخلص من قبضة أناس نصبوا أنفسهم للدفاع عنه . نعم كان في مقدوره الاعتصام في قصر يلدز المنيع وزيادة عدد الحراس والجنود ، ودفع نصف شعبه للتجسس على النصف الآخر ، ولكنه كان يخشى العزلة وفقد الاعوان ، ويخشى أن يكون مصيره كمصير أسلافه الذين لم تعصمهم القصور العالية من المغتالين ؛ فكان الاجدر أن يوكل حمايته الى جماعة تقضي مصالحهم الشخصية بصيانته من كل سوء وأذى ، حتى صار لا يرى الدنيا الا باعينهم ، ولا يسمع

= السلطانية والشيخ رحمة الله الهندي والشيخ سعيد الجسر من طرابلس الشام.

أما أشد هؤلاء نفوذاً وخطراً ، فهو ابو الهدى الصيادي الذي ينتمي الى اسرة عريقة في حلب ، وهو ممثل الطريقة الرفاعية في عاصمة آل عثمان ؛ وقد استطاع بدهائه أن يجمع حوله ألوفاً من المريدين والاتباع .

كان هؤلاء المشايخ في حرب دائمة ، سلاحهم الدس والكيد في الخفاء والشتم والسباب في العلانية ، وكانوا يتدافعون للفوز بالحظوة السلطانية. ولا ريب في أن جزءاً كبيراً من مقدرات الدولة كان بين ايديهم .

(١) كان عبد الحميد يعلم سلطان الدين على نفوس رعاياه ، فأراد ان يكسب محبتهم عن طريق التدين والورع ، فأوعز يوماً الى جرائد العاصمة بدرج القطعة الآتية : « ان وارث السلطنة الشرعي الامير عبد الحميد افندي قد امتنع عن الاكل منذ يومين في دائرة الخرقة الشريفة ، وانهمك في استمداد العون من روحانية صاحب الرسالة ، وهو يذرف الدموع بغزارة لكي يوفق الى اسعاد الامة الاسلامية وقيادتها الى شاطيء السلامة » .

أصوات رعاياه الا بآذانهم .

كان السلطان عبد الحميد شديد المطامع ، بعيد الطموح ، يلجأ لتحقيق رغائبه الى طرق معوجة ؛ تولى الملك في ظروف دامية وافقت خروج الدولة العثمانية مثخنة بالجراح من حروبها مع الروسيا ، تنتابها في الوقت نفسه أزمات اجتماعية وانقلابات سياسية خطيرة ، نشأت عن ادخال النظم الاوربية في المجتمع التركي . فأراد استغلال هذه الفوضى التي تتخبط فيها البلاد ، فألغى الدستور ، وأعلن حكم الاستبداد ، وشرع في تطبيق سياسة جديدة في تاريخ الدولة العثمانية ، سياسة الجامعة الاسلامية .

كان للخلافة مظهران : مظهر سياسي ، وهو لايتعدى حدود الدولة العثمانية ، وآخر روحي وهو يمتد الى جميع انحاء العالم الاسلامي ؛ وقد بذل عبد الحميد جهده لكسب ولاء الشعوب الاسلامية المنتشرة في أطراف المعمورة وجعلها اداة لتهديد الدول الاوربية والحد من مطامعها ، وطفقت الصحف الرسمية الناطقة بلسان السلطان وحاشيته تدعو ملوك المسلمين وأمراءهم الى الانضمام تحت لواء الخلافة ، وتسليم الخليفة مقدرات المسلمين وأمر خلاصهم من استعباد المستعمرين الظالمين .

ظل عبد الحميد في السنين الأولى من حكمه (أي من سنة ١٨٧٦ الى سنة ١٨٩٤) يتلمس الطرق الموصلة الى تحقيق نجاح هذه السياسة الجديدة ، فكان مما أوجده الى جانب الهبات وتشجيع المؤسسات الخيرية والدينية ، مدارس للمبشرين والدعاة ، على شاكلة مدارس التبشير المسيحية ، يجوبون أطراف العالم شرقاً وغرباً ، داعين للرابطة الاسلامية والاخوة الاسلامية ، وظهر منهم دعاة متحمسون توغلوا في الصين وافريقية الشمالية والهند وبخارى والقفقاس والبلقان . ولا ريب في ان الجامعة الاسلامية كانت شبحاً مخيفاً للأوربيين ، وبخاصة الدول المستعمرة التي يخضع لسلطانها ملايين المسلمين . وكان اتحاد المسلمين تحت لواء الخلافة والقيام بثورة تحريرية اكثر ما كانت تخشاه هذه الدول .

والحق ان السلطان عبد الحميد بتشجيعه العناصر الاسلامية في كافة الاقطار مادياً ومعنوياً ، قد وفق الى ايجاد مشاكل أقلقت المستعمرين زمناً ، وقد ازدادت دعوته بعد معاهدة برلين شدة وعنفاً ؛ الا ان هذا التشجيع كان يجري بادىء بدء في الخفاء ، وكان عبد الحميد يتحاشى مناوءة الدول الاوربية المستعمرة علناً ، ولعله كان يشفق أن يؤدي تضامن المسلمين الى تكوين اتحاد مسيحي تناصره أوروبا لمجابهة الجامعة الاسلامية . وقد علمت التجارب وعبر الماضي عبد الحميد أن تفرق الدول المسيحية كان عاملا من عوامل سلامة تركيا في جميع ادوار تاريخها ؛ الا أن انفصال المانيا عام ١٨٨٨ عن الكتلة الاوربية، وانحيازها الى جانب الدول العثمانية ، توصلا الى تحقيق توسعها الاقتصادي في الشرق ، أضف الى ذلك رحلة الامبراطور غليوم الثاني سنة ١٨٨٩ الى الولايات العثمانية ، وما تم بينه وبين العثمانيين من عهود واتفاقات ؛ كل هذا أوجد في نفس الساطان عبد الحميد جرأة واقداماً دعواه الى الجهر بسياسته الاسلامية . الا ان هذه السياسة القائمة على مثل دينية ، لم توجه في طرق صالحة ، فكان مقدراً لها ان تصطدم بالقوميات والشعوب المختلفة المكونة للدولة العثمانية ، التي أخذت تتأثر من تيارات أفكار التحرر التي اشتدت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ؛ فسرعان ما وجد الساسة الأوربيون المتربصون ، ميداناً فسيحاً للتدخل في شؤون الدولة لدفع الخطر عن مصالحهم والمحافظة على امتيازاتهم .

أدى تدخل الاوربيين من جهة ، وأخطاء العثمانيين من جهة ، الى اضطهاد الأقليات العنصرية والدينية ، كان بدؤها اضطهاد اليونانيين في جزيرة كريت سنة ١٨٩٤ ، وأعقبها اضطهاد الارمن وحدوث المذابح الأرمنية في انحاء تركيا ؛ وكان الأرمن ، كما نعلم ، خاضعين لنفوذ روسيا وتحريض جمعياتهم المنتشرة في أوربا . وكانت انكلترا اكثر الدول ، يومئذ ، عطفاً على القضية الأرمنية ، لاحباً بالانسانية ، بل لوجود ارمينية في موقع جغرافي يجيز لها

منه مراقبة روسيا وحركات جيوشها ؛ ولذا كانت انكلترا اسرع الدول الى الاحتجاج على المذابح الارمنية ، واثارة الرأي العام الاوربي ، حتى حملت الدول سنة ١٨٩٥ على ايفاد لجان يرأسها مندوبون بريطانيون ؛ وعلى الاثر وضع مندوبو الدول الثلاث: انكلترا وروسيا وفرنسا، مذكرة اكدوا فيها ضرورة اجراء الاصلاحات وتحسين أحوال الارمن التي قضت بها معاهدة برلين (١) شعر السلطان عبد الحميد بان احتجاجات الدول لم تكن شكلية ؛ وان انكلترة وفرنسة جادتان في خلق تحالف دولي ضد الدولة العثمانية ، فأوجس عبدالحميد خيفة وتوقع الشر ، وصور له أشياعه ومستشاروه الحالة اسوأ مما كانت عليه في الواقع ، وأوهموه بان المذابح الأرمنية اثارت سخط العالم أجمع ، وان الدول عازمة على التدخل فعلا في شؤون قد تمس سيادة الدولة وسلامتها ، فأسقط في يده (وهو الشديد التوهم ، المرهف الاعصاب ، الغريب التصور) وعول على الرضوخ لمطاليب الحلف الثلاثي ومعاقبة المعتدين ومسببي الحوادث!

ظهور عزت باشا العابد

وعندها ظهر فجأة رجل مغمور من موظفي السراي يدعى « عزت

---

(١) نصت المادة ٦١ من معاهدة برلين على تعهدات الباب العالي «بوجوب اصلاح وتحسين حالة الارمن الاجتماعية والمادية ».

ومعاهدة برلين حلت سنة ١٨٧٨ محل معاهدة « سان استفانو » بمساعي انكلترة وهي تقضي باستقلال الصرب والجبل الاسود ورومانية ،وانشاءامارة البلغار وجعلها قسمين : أحدهما يتمتع بالحكم الذاتي والثاني جعله تحت حكم الدولة العثمانية ، وأعطيت تساليا لليونان ، واستعادت روسية اقليم بسارابيا الذي انتزع منها سنة ١٨٥٦ ، كما انها حافظت على ممتلكاتها في آسية وهي قارص وباطوم واردهان من ارمينية ، واستولت انكلترة على قبرص بموجب معاهدة خصوصية لقاء توسطها في تبديل معاهدة « سان استفانو ».

العابد » فقدم تقريراً الى مولاه السلطان جاء فيه : « ان اوربة منقسمة على نفسها ، وأن مطامع الدول المتباينة تقضي عليها بالعجز عن توحيد اجراءاتها وعقوباتها نحو الدولة العثمانية ، وان هذا التحالف الذي يهدد به الأوربيون يخفي في الحقيقة وراءه تزاحماً وتنافساً شديدين ، وأنه حري بمولاي السلطان ان يخشى الاوربيين متفقين اكثر منهم مجتمعين ؛ وقد لايستبعد ان تتظاهر احدى الدول لتركية بالعداء ، وتقدم لها المعونة في الخفاء ، بغية جذبها الى ناحيتها ؛ اذن فلا داعي للخوف والقلق بل يجب الصمود امام التيار والضرب بمطاليب الدول عرض الحائط ».

كان عزت مصيباً في وصفه أساليب السياسة الاوربية ، اذ مالبث ان انسحب الروس والفرنسيون من الحلف الذي أوجدته انكلتره ؛ انسحب الروس لانهم كرهوا وجود محققين ومراقبين بريطانيين على التخوم الروسية وكفت الصحف بعد ذلك عن مهاجمة تركية . ويقول « جاك انسيل» مؤرخ المسألة الشرقية : « ان عشرين صحيفة فرنسية تلقت لقاءسكوتهامبالغ ضخمة من السفارة العثمانية في باريس » والاغرب من كل هذا أن بعض الصحف التي كانت تنادي بالامس بفظائع الاتراك وهمجيتهم وترثي لحال الارمن وبؤسهم عادت تتساءل : « عما اذا كانت هناك منطقة تجيز القول بوجود مايسمونه « ارمينية ! »

كان لنجاح عزت العابد وقع عميق في نفس مولاه السلطان عبد الحميد ، فقربه اليه وجعله قرينه وأمين سره ومستشاره في الشؤون الاوربية (١) ،

---

(١) روى احد سراة دمشق قال : « سمعت وانا شاب من سليم او نجيب بك ملحمة انه على اثر مذابح الارمن حين كان ناظم باشا (والي سورية) ناظراً للضابطية ان الحكومة الانكليزية سألت الحكومة العثمانية عن عدد القتلى من الارمن وبقيت الوزارة مرتبكة ثلاثة ايام للخروج من هذه

ومنذ ذلك اليوم عظمت مكانة عزة باشا عند السلطان .

وقد استطاع عزت العابد بما أوتي من دهاء وذكاء وألمعية أن يفوز بثقة خصوم الدولة وحلفائها على السواء . وقد بلغ من حذقه انصير" ساستهم ، على حد قول احد المؤرخين ، ألعوبة يتلهى بها ، يهزأ منهم تارة ، ويكذب عليهم تارة اخرى ، وهم بذلك مسرورون مغتبطون راضون ».

لم يكتم عبد الحميد اعجابه بهذا المستشار الوفي ، فقد صاح مرة في جمع من السفراء وأعاظم الدولة : « الآن وجدت صديقاً مخلصاً ، وأعتقد ان ظهور عزت العابد على مسرح السياسة عامل من عوامل نجاح سياسة عبد الحميد نفسه ، وتألق نجمه مدة حكمه .

حياة عزت باشا العابد

هو عزت باشا بن هولو باشا بن عمر اغا بن عبد القادر بن محمد اغا ابن الامير قانص العابد ، احد سادات وزعماء الموالي الضاربين في بادية الشام بين الزور وتدمر .

وفد محمد العابد سنة ١١٦٢ هـ من حماه الى دمشق واستوطنها. اماهولو

= الازمة الخطيرة ، وانكلترة تكرر السؤال وتلح بضرورة الاسراع بالاجابة وعندها أنقذ عزت باشا الموقف فتقدم الى السلطان باقتراح يطلب فيه تكليفه الاجابة على برقيات الانكليز . فكلفه السلطان بذلك . وكان الانكليز قبل بضعة أشهر قد ارسلوا سراً باخرة تحمل مئتي الف بندقية الى الارمن الثائرين وعند مرورها بجزيرة اقريطش صادرتها الحكومة العثمانية مع الذخائر .فكان جواب عزت باشا على برقية الانكليز : « ان عدد قتلى الارمن بلغ عدد البنادق الحربية التي صودرت في « اقريطش ».

باشا (١)، والد عزت باشا فهو من الذين تركوا اثراً في الادارة والحياة العامة ومن أخباره التي حفظها التاريخ ايواؤه الناس في حوادث الستين . وقد أدى هولو باشا للدولة العثمانية عدة خدمات ، وتقلد مناصب هامة : كمتصرفية حمص وحماة ونابلس ورئاسة مجلس الادارة في دمشق . ولما جاء الفرنسيون بقيادة الاميرال « دوتبول سنة ١٨٦٠ ، كان هولو باشا الصلة بين الفرنسيين وبين فؤاد باشا الذي اوفده الباب العالي للتحقيق في اسباب الفتنة . وعرف هولو باشا بقوة الشكيمة والاقدام ، وكانت الدولة ترسله لقمع العربان الثائرين وقد جرت له وقائع دامية معهم ؛ وقيل ان الناس في جبال العلويين كانوا يخيفون اطفالهم « بالهول » ولا ريب في ان عزت باشا العابد قد ورث عن ابيه الاستهانة بالصعاب وصلابة الارادة وشده المراس .

●

ولد عزت باشا العابد في دمشق سنة ١٨٥١ م . وتلقى دروسه الابتدائية في احدى كتاتيب حي الميدان ، شأن ابناء الاسر الدمشقية في ذلك الزمن . ولما ايفع أرسله ابوه الى المدرسة العازرية في دمشق ، فمدرسة عينطوره ، ثم انتقل بعدها الى المدرسة البطريركية في بيروت ؛ وكان من جملة رفاقه في المدرسة المرحوم بشارة تقلا مؤسس الاهرام . وكان عزت باشا معروفاً ، وهو على مقاعد الدراسة بالنباهة والفطنة ، فصار يتنافس وبشارة تقلا للفوز بالاولية ، على أن الاثنين كانا موضع اعجاب اساتذة المدرسة وتقديرهم.

لم يستطع عزت باشا لسبب ما ، اتمام دراسته ، بل هجر المدارس في سن مبكرة للدخول في السلك الحكومي ، فلازم الدوائر الرسمية في دمشق ،

---

(١) حدثني احد آل العابد أنه كانت صداقة بين عمر آغا العابد وابراهيم باشا قائد الحملة المصرية ، فأشار هذا على عمر آغا بتسمية ابنه « ابا الهول » فحرفت مع الايام الى « هولو » .

واتقن اللغة التركية ، ثم عين كويتباً في مجلس ادارة الشام براتب عشرة قروش تركية في الشهر ، وانتقل بعدها الى وظيفة كاتب ضبط ، فمستنطق في العدلية ، وارتقى بعدها الى ان اصبح رئيساً للمحكمة التجارية بدمشق .

ولما كان هولو باشا ذا نفوذ في الدولة ، فقد سعى لدى احمد جودت باشا المؤرخ التركي والقانوني المشهور ، عند مجيئه الى سورية في رحلة تفتيشية ، لتعيين ابنه عزت مفتشاً للعدلية في سورية ولبنان وفلسطين ؛ واستطاع عزت ، بما ركب في طبعه من مرونة وكياسة ، أن يكسب ثقة الناس ، مما اثار حفيظة الولاة : فعملوا على نقله ، فنقل الى سلانيك مفتشاً للعدلية ، ثم رقي الى رتبة رئيس للمحكمة المختلطة بالاستانة ، وبعد ذلك أصبح عضواً في مجلس شورى الدولة مدة اربع سنوات ، ثم عين بوساطة احمد جودت باشا ايضاً — وكان يومئذ وزيراً للعدلية — رئيساً للمحاكم التجارية والمختلطة والأهلية في عاصمة آل عثمان .

وفي سنة ١٨٩٤ رست في مياه البوسفور عدة قطع من الاسطول الالماني ، فاعتدي بعض رعاع الآستانة على بحارة الاسطول ، فاحتج سفير المانية لدى « المابين » طالباً عزل أحمد جودت باشا وزير العدلية لتهاونه في امور تتعلق بالحادث ، فعزل ؛ ولكنه ظل على اتصال دائم بالسراي ، فنقل عزت باشا العابد من المحاكم التجارية الى السراي بصفة كونه كاتباً ثانياً للسلطان عبد الحميد ، على أن يضاف اليه رتبة « قرين » وهي وظيفة المقربين الى السلطان) .

ولم يلبث عزت باشا أن سيطر على أمور القصر سيطرة تامة .

كان من جملة مطاليب رجال « تركية الفتاة » عقب دخولهم الآستانة منتصرين سنة ١٩٠٨ ، عزل حاشية السلطان عبد الحميد وتسليم آخرين وفي جملتهم عزت باشا العابد ، فعول هذا على الفرار ، وقد بلغ من حب عبد الحميد

لأمين سره المخلص ان أعطاه جوازاً خاصاً على أنـه موفد بمهمة رسمية الى الى مصر ، ونصحه بالسفر ليلا تفادياً من أعين الرقباء ، فـكانت حادثة فراره لا تخلو من طرافة : اذ اعد العدة لشراء باخرتين « الآسوس » و« الماريا » ، الاولى فرنسية تم عقد بيعها في سفارة فرنسا ، والثانية انكليزية ، بمبلغ عشرة آلاف ليرة انكليزية ذهباً لـكل منهما ! وكان شراؤه للباخرتين مبالغة في في الحذر وضماناً لنجاح الخطة عند حدوث الطوارىء ؛ اذ صح ما توقعه فلم يتمكن من تسلم الباخرة الفرنسية في الموعد المحدد ، فنجا على ظهر الباخرة الثانية . وظلت هذه الباخرة تتجول في البحر المتوسط مدة اسبوعين ونيف ، تضليلاً للرقباء . وكان اتباع « تركيا الفتاة » قد لحقوا بعزت باشا على متن الباخرة الفرنسية ، ويقال انهم ادركوه في مرفأ « اسبيزيا » في ايطاليا . ولما كانت الباخرة رافعة العلم الانكليزي لم يجسر المطاردون على ايقاف عزت باشا ؛ فرست الباخرة في مدينة جنوى بايطاليا !

لقد شغل اختفاء عزت باشا عند اعلان الثورة ، أذهان الجماهير الناقمة على العهد الحميدي ، وصار الناس يتساءلون عن مصيره ، فمن قائل انه فر الى خارج البلاد ، ومن قائل انه اختبأ في السفارة الالمانية وكانت الجماهير تطوف شوارع الآستانة حاملة لوحات فيها طمن « بالخائن عرب عزت » . وبعد وصول عزت باشا الى اوربا سالماً ، أرسل الى صحيفة « اقدام » الثورية التي تصدر في العاصمة برقية لا تخلو من تهكم لاذع يقول فيها : « ان الناس انكروا الخدمات التي أداها للدولة ومن جملتها انشاء الخط الحجازي ؛ اما الفظائع التي ارتكبها الجواسيس واعوان السلطان ، فهو منها براء . وقد اضطر الآن الى الفرار . وبما أن الدستور يضمن الحريات ، فانه سيعود يوماً الى تركية للعيش تحت ظلال هذا النظام الدستوري » .

ظل عزت باشا يتنقل في ربوع أوروبا وعواصمها مدة ثماني سنوات ، الى أن استقر به المطاف في مصر ، وفيها توفي سنة ١٩٢٤ عن ثلاثة وسبعين عاماً ،

بعد ما قطن في دمشق ، مسقط رأسه ، حوالي أربع سنوات .

●

تلك هي مراحل حياة عزت باشا العابد . وتبدو للمطالع انها حياة عادية منزهة عن الاحداث الهامة والصخب الذي تتصف به عادة سير العظماء والنابغين . وقد وجدت عنتاً في جمع شتات هذه المعلومات والتقاطها من أفواه معاصري وذوي قرابة عزت باشا . ويغلب على ظني أن اهمال الناس لسيرة هذا الرجل يعود الى حياة عزت باشا نفسها ؛ فقد جرت في طي الخفاء بين جدران قصر يلدز النائي ، والى ان شخصية عبد الحميد واحداث عصره شغلت الناس عن التحدث عن حاشيته واعوانه ؛ نعم ان عزت باشا عاش في ظل مولاه « السلطان الاحمر » ولكن احداً لاينكر انه كان المسيطر الحقيقي على ارادة السلطان حتى بات يسير سياسة الدولة المحلية والشؤون الاوربية منذ دخوله القصر سنة ١٨٩٤ الى خروجه منه سنة ١٩٠٨ .

كان عزت باشا ذكياً الى أبعد حدود الذكاء ، ذلك الذكاء العملي الذي يبعد بصاحبه عن مواطن التردد ويضمن له الفوز في الحياة . وقد وجد عزت باشا في « يلدز » وسطاً ملائماً لاستغلال مواهبه ومؤهلاته . ولعل تدرجه في المناصب الادارية المختلفة أعانه على معرفة اهل زمانه ، والاطلاع على أسرار نفوسهم واهوائهم وتلمس مواضع النقص فيها ، حتى استطاع ان ينال من عبد الحميد مالم ينله غيره من الحظوة والثقة ، على كثرة مافي القصر من مغامرين اذكياء . وقد بلغ من استئثار عزت باشا بأمور الدولة ، انه كان يبلغ الادارة السنية قبل صدورها . وكأن هذه الثقة التي نالها كانت تثير نقمة الحاشية من السوريين وغير السوريين ، امثال أبي الهدى الصيادي ، ونجيب باشا وسليم باشا ملحمة ، والكاتب الاول تحسين باشا وغيرهم ممن يتدافعون بالمناكب للفوز برضاء السلطان .

ولم يسلم عزت باشا من نقمة الاتحاديين وأنصارهم المعروفين بالنزعة



جلالة المغفور له فيصل الاول والى يمينه احمد عزت باشا العابد

اخذت هذه الصورة عندما كان جلالة الملك فيصل ملكا على سورية

الطورانية الذين كانوا يرون في فوز عزت باشا فوزاً للعنصر العربي الذي يعملون على محاربته واقصائه عن الحكم . ألم يرو التاريخ أنهم اذا ارادوا ذكر اسم عزت باشا أضافوا اليه كلمة « عرب » امتهاناً للجنس الذي ينتسب اليه ! وما اكثر المؤامرات التي كانت تحاك ضده ، ولكن كان ينجو منها بمهارة عجيبة .

على ان تآمر بني قومه عليه لم يخلق في قلبه بغضاً لهم وحقداً عليهم ، ولم يكن يريد مقابلة الاساءة بمثلها ، فقد كان شديد العصبية لبني قومه العرب براً باهله ومواطنيه ، هذا وان لم تكن لدينا وثائق أو براهين تثبت عطفه على رجال القضية العربية في العهد الحميدي (١) الا أننا نعتقد انه كان يحرص حرصاً شديداً على كتم عواطفه وكبت عطفه على بني وطنه .

ولما سافر المغفور له الملك فيصل الى اوربا سنة ١٩١٨ لتمثيل العرب في مؤتمر الصلح ، كان عزت باشا يومئذ في نيس . ولما علم بقدوم الملك العظيم خف لاستقباله في مدينة ليون ومكثا مدة معاً وتبادلا الرأي في القضية التي جاء فيصل من أجلها . وقد لقي عزت باشا من فقيد العرب عطفاً سامياً كريماً .

كان عزت باشا سريع الخاطر ، شديد التيقظ والحذر ، ثابت الجنان ، واسع الحيلة ، يلبس لكل حالة لبوسها ، وما اجتمعت هذه الصفات في رجل الا كان الفوز حليفه عند ذوي السلطان : ففي ١٠ شباط (فبراير) سنة ١٨٩٧ خرج اهالي جزيرة كريت اليونانيه على الدولة بتحريض ملكهم جورج

---

(١) عندما ضبط جمال باشا اوراقا سرية في منزل الشهيد عبد الحميد الزهراوي ، وجد ضمنها تحريراً وجهه عزت باشا الى الزهراوي يؤكد بعبارة غامضة « اخلاصه وبقاءه على العهد » وقد حامت الظنون يومئذ حول تفسير الجملة وتأويلها .

الاول ؛ ولما وصلت انباء فظائعهم الى الآستانة . اخذ الرأي العام يطالب الحكومة باعلان الحرب على اليونان ، ولكن السلطان عبد الحميد تردد حينئذ في اعلان الحرب ، لانه كان ينفر من الحروب ويمقتها ، وكان رأي عزت باشا ايضاً التريث حتى تعلن حكومة اليونان الحرب على الدولة. فتكون المعتدية في نظر الرأي العام الدولي ، ولما زاد تحرش الكريتيين بالاتراك ، ارسلت الدولة القائد ادهم باشا بطل تسالية على رأس جيش كبير على ان يتلقى امر البدء بالقتال من عزت باشا كاتب سر السلطان ، وكان أدهم باشا طوال هذه المدة يتميز غيظاً منتظراً امر الهجوم على اليونانيين . وكان يرسل الانباء المستعجله الى الباب فلا يلقى عليها جواباً . حتى تناقل الناس يومئذ أن عزت باشا تناول من اليونانيين رشوة قدرها مليون فرنك ليقنع السلطان بعدم اعلان الحرب على اليونان . ولما انتصر ادهم باشا على اليونانيين في وقائع مشهورة (١) أراد اتهام عزت باشا بالخيانة العظمى لعدم اطلاعه مولاه السلطان على على الانباء الخطيرة التي كان يرسلها . ويظهر أن عبد الحميد لم يشأ أن يظهر امام قواده بمظهر المتخاذل الجبان ،فأنكر وصول هذه الاخبار . فما كان من عزت باشا الا ان اعترف خلافاً للواقع في حضرة عظماء الدولة بانه تعمد اخفاء هذه الانباء عن السلطان لان مصلحة الدولة تقضي بذلك . فعجب السلطان من هذه التضحية ! . ولما انصرف القوم قال عزت باشا : أمن اللياقة ان اظهر افندينا بمظهر الكاذب امام الناس ؟ فسر عبد الحميد وقال : أشكرك على ذكائك وفطنتك ياعزت ! ومنحه عطية كبرى .

---

(١) من المعلوم أن الاتراك هزموا اليونان هزيمة نكراء . وقد انتهت الحرب بتوسط روسيا وتخلي اليونان بموجب معاهدة القسطنطينية (١٨٩٧/١٢/٤) عن عدة مواقع حصينة استولت عليها عام ١٨٨١ في تساليا ، وتخلت ايضاً عن جزيرة كريت ودفعت غرامة حربية قيمتها مائة مليوناً من الفرنكات.

كان عزت باشا يتقاضى في بادىء الامر من السراي راتباً ضئيلا حتى جمع باقتصاده وتقتيره على نفسه بضعة آلاف من الليرات الذهبية ؛ ولما كسب ثقة السلطان واخذ نجمه في الصعود ، بدأ في تكوين ثروته الضخمة . وهناك مصدر رئيسي لهذه الثروة الطائلة هو ما كان يقبضه من عمالة على القروض التي كانت تعقدها الحكومة العثمانية مع الدول الاجنبية وفي طليعتهم فرنسا . أضف الى ذلك ما كان يأخذ من جعل لقاء منح الامتيازات المختلفة للشركات الاجنبية الاستثمارية كشركة حصر الدخان ، ومرفأ بيروت ومناجم أرغلي ومرفأ سالونيك ، وبتجديد امتياز البنك العثماني ، وتمديد شبكة الخطوط الحديدية ، وشراء الاسلحة والذخائر للجيش التركي ، حتى آل الامر الى أن « أصبح عزت باشا رئيساً لجميع اللجان المالية والاقتصادية ، وباتت وزارتا المالية والاشغال شبه دائرتين يسيرهما عزت باشا نفسه » وكثيراً ما كانت الصفقات تعقد في غرفته الخاصة . وقد قدرت ثروة عزة باشا عند اعلان الدستور بثلاثة ملايين ليرة عثمانية ذهباً ، أودع معظمها في مصارف اوروبا الكبرى ، واشترى بالباقي عقارات وأطياناً ومزارع في سورية ولبنان .

ومن الامتيازات التي حصل عليها عزت باشا لنفسه امتياز شركة الجر والتنوير بدمشق سنة ١٩٠٦ لقاء ستين الف ليرة عثمانية ذهباً . فعول على دفع نصف المبلغ من ماله الخاص ، وطرح الباقي للاكتتاب . ولأمر ما لم ينل المشروع النجاح المقدر له ، فباع عزت باشا الامتياز لشركة « شارلروا » الفرنسية البلجيكية . فكان نصيبه من الربح خمسين الف ليرة عثمانية ذهباً . وكان قد سجل الامتياز على سبيل الحيطة باسم الامير محمد أرسلان ، فنال الامير مبلغ خمسة آلاف ليرة عثمانية ذهباً نصيبه من الربح .

الخط الحجازي

من المشاريع العمرانية العظيمة التي يجب أن يقرن بها اسم عزت باشا

العابد مشروع الخط الحجازي ، فهو الذي ابدع فكرته ، واضطلع باعبائه ، وأشرف على اتمامه ، مذللا ما اعترض المشروع من العثرات والمثبطات .

كانت سياسة بريطانيا الدولية والاستعمارية ، منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر موجهة الى حماية طريق الهند ، وكان شغل ساسة الانكليز الشاغل ضمانة سلامة المراكز والقواعد الحصينة الواقعة على طريق الهند ؛ وعلى ضوء هذه القاعدة السياسية أكتسب البحر الاحمر والخليج الفارسي أهمية كبرى في حماية النفوذ والمصالح البريطانية في الشرق الاوسط من جهة ، وابعاد شبح الخطر عن طريق الهند الحيوي من جهة أخرى .

على أن هذه الطريق ، التي هي بمثابة شريان يغذي جسم الامبراطورية البريطانية ، قد هدد بالقطع اكثر من مرة ، وفي كل حين كانت انكلترة تبادر بكل مالديها من قوة ووسائل لابعاد الخطر عنه . ففي سنة ١٨٤٦ كادت تقع الواقعة بين انكلترا وروسيا ، لوقوع تركيا ضمن نطاق النفوذ الروسي ، الذي يخشى من ورائه السيطرة على المضائق . ولما فتحت قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، كانت انكلترا أولى المعارضين لمشروع فرديناند دي لسبس ، وكان الوزير الانكليزي بالمرستون يقول سنة ١٨٥٦ : « ان مشروع السويس لعبة شيطانية ، الغرض منها الاستيلاء على مصر ، وفي الوقت نفسه تمهيد السبل لغزو الامبراطورية البريطانية في الهند.» ولذا سارعت انكلترة الى احتلال مصر ، وشراء كميات كبيرة من أسهم القناة .

ولما انحازت تركية في العهد الحميدي الى المانيا ، وأذنت بتوسع المانيا السياسي والاقتصادي في الشرق ، أوجست انكلترا خيفة على امبراطوريتها ، وشرعت في توجيه سياستها في الشرق الاوسط وجهة جديدة ، جاعلة من

أهدافها الاعتماد على العناصر المكونة للمملكة العثمانية ـ ومن جملتها العنصر العربي ـ لاضعاف الدولة العثمانية واحباط سياسة رجالها التي تتعارض مع سلامة انكلترا وسلامة امبراطوريتها !

كان عبد الحميد يرمي من وراء انشاء الخط الحجازي الى غايتين : الاولى ظاهرية شكلية : وهي كسب عطف العالم الاسلامي ، وتقوية الروابط بين مسلمي العالم بتسهيل سبل الحج الذي هو أفضل وسيلة للتعارف والاتحاد ، والثانية سياسية عسكرية تستهدف في الغالب مناوأة السياسة الاوروبية ، لان الخط الحجازي يفيد ـ اذا تم اتصاله بخط الاناضول وخط برلين ـ بغداد الواصل الى الآستانة ، أقول يفيد في نقل الجيوش والمعدات الحربية الى قناة السويس والبحر الاحمر والخليج الفارسي عند الاقتضاء .

وللخط فائدة أخرى تنبه اليها عبد الحميد بعد ثوره اليمن سنة ١٨٩٨ (التي دامت سبع سنوات) وهي توطيد نفوذ الدولة في جزيرة العرب ، والقضاء على الفتن والثورات ، وكل الحركات الانفصالية فيها . وقد خشي « بعض محرري الصحف الالمانية يومئذ أن يقوم الوهابيون بتحريض من الانكليز باحتلال الحجاز قبل اتمام الخط ، فيقضون بذلك على أحلام امير المؤمنين عبد الحميد الثاني في التوسع » .

وفي الحق أن انشاء الخط الحجازي يعين بدء تحول في السياسة العثمانية زمن عبد الحميد . ففي سنة ١٨٩٧ كتب الجنرال « فون درغولتس » ، المدرب الالماني في الجيش العثماني ، بعد شهوده معركة تساليا ، عدة مقالات عن أسباب قوة وضعف الدولة العثمانية قال فيها : « ومن اسباب ضعف هذه الدولة : اهمال سلاطين آل عثمان منذ قرنين للولايات العثمانية في آسيا ، واضعافهم الدولة في حروب عقيمة للدفاع عن بضعة امتار مربعة في أوروبا مهملين بذلك مصالحهم الحيوية . ولا بد لهم من الرجوع الى سياسة اسيوية ، مصدر الفوائد والقوة ، ولو أدى ذلك الى فقد ممتلكاتهم في اوربا . زد على

ذلك ، فان اهمال الدولة لمصالحها في آسيا ، أدى الى توتر العلاقات بين العرب والترك ، ونشوء الثورات والفتن التي كلفت الدولة مالا ورجالا تفوق الحصر ولذا ارى اذا شاء الاتراك انقاذ دولتهم من التدهور والانحطاط ، أن تحل السياسة الاسيوية محل السياسه الاوربية »

من أين يأتي السلطان عبد الحميد بالمال الذي يستلزمه بتحقيق هذا المشروع الهائل ؟ كان عزت باشا العابد الذي وكل اليه الاشراف على الخط يعلم يقيناً ان الاقتصار على رعايا الدولة العثمانية غير كفيل بالنجاح ؛ فلا بد اذن من اشراك الامبراطورية العثمانية والعالم الاسلامي معاً في تحمل نفقات المشروع . فأشار على السلطان بتوجيه دعوة الى كافة المسلمين في انحاء الدنيا ، وحثهم على التبرع . وقد افتتح السلطان قائمة التبرعات بمبلغ ثلاثمئة الف ليرة عثمانية ذهباً من ماله الخاص ، وتبعه ملك العجم محمد علي شاه بدفع خمسين الف ليرة عثمانية ذهباً ، والخديوي عباس حلمي بما يقرب من هذا المبلغ ؛ وانهالت بعد ذلك الاموال من المسلمين وملوكهم وامرائهم . وكانت الهند اسرع الشعوب الاسلامية تلبية للنداء واكثرها سخاء . وقد عمد عزت باشا الى وسائل محلية دائمة للحصول على المال ، منها بيع الاوسمة والرتب بأثمان تختلف حسب الدرجات ، واجبار موظفي الدولة على التخلي عن راتب شهر في السنة، وانقاص مرتباتهم عشرة بالمئة . وأصدرت الدولة طوابع الخط الحجازي ، وزادت الضريبة على الجمارك . وبفضل هذه الوسائل وغيرها ، جمع المال اللازم ، بعد ان ايقن الناس ، في فترة من الفترات ان المبالغ المقدرة لاتكفي. فقد كتب معتمد انكلترا في دمشق سنة ١٩٠٤ مايلي : « أصبح الامل بانجاز الخط الحجازي اكبر منه منذ سنة أو سنتين ، واذا قدر للمشروع الفشل بعد سنتين او ثلاث ، فلن تكون الاسباب على كل حال مالية ... »

ولما شاع مشروع الخط ، قوبل بالارتياح في جميع انحاء العالم الاسلامي ، وأجمعت الصحف على امتداحه والثناء على السلطان وامين سره عزت باشا

العابد . ومما قالته احدى الصحف : « ان للخط الحجازي اهمية تعادل اهمية قناة السويس في العالم الاقتصادي » . وقالت اخرى معددة الفوائد السياسية والاقتصادية والدينية التي تجنى من هذا الخط :

(١) تعمير المناطق والسهول الزراعية الخصبة واستثمار الثروات المعدنية في جزيرة العرب ؛

(٢) تحضير البدو والقضاء على اعتداءات الاعراب على قوافل الحجاج والمسافرين بين دمشق والمدينة ؛

(٣) توطيد مقام الخلافة الديني والزمني ؛

(٤) القضاء على الدسائس والمؤامرات الانكليزية في البحر الاحمر وشبه جزيرة العرب ... »

ويظهر ان السلطان عبد الحميد كان ينوي مد خطين آخرين : الاول من ينبع الى مكة والمدينة ، والثاني من مكة الى المدينة ، وقالت جريدة التايمس الهندية « *Taimes of India* » الصادرة في ٦ نيسان (ابريل) ١٩٠٧ : ان « عزت باشا العابد حذر السلطان من ذلك واشار الى ان تمديد الخطوط من مرافيء الحجاز الى داخل الاراضي المقدسة يجعل الحجاز في متناول الاصابع الانكليزية. فعدل السلطان عن المشروع ومد الخط من دمشق الى المدينة ، وهو الطريق نفسه الذي سلكه الرسول (ص) في رحلته الى الشام . »

بدأت اعمال مد الخطوط في دمشق سنة ١٩٠٠ ويظهر ان الاعمال سارت في بادىء الامر بسرعة لم تعهد في تاريخ الخطوط الحديدية . فقد انتهت المرحلة الاولى دمشق ـ درعا في ٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٠٣ ، وانتهت المرحلة الثانية درعا ـ عمان في اواخر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٣ ، والمرحلة الثالثة عمان ـ معان في ايلول (سبتمبر) ١٩٠٤ ، والمرحلة الرابعة معان ـ تبوك عام ١٩٠٦ ، والمرحلة الخامسة تبوك ـ مدائن صالح عام ١٩٠٧ . وفي ٣١

آب (اغسطس) من سنة ١٩٠٨ احتفل بالخط الحجازي ، يوم عيد جلوس السلطان عبد الحميد الثاني . وقد كافأ السلطان امين سره عزت باشا مكافآت سنية ، وكذلك نال المهندس الالماني « مايسنر باشا» عطايا كثيرة جزاء جهوده وكتبت جريدة الطان في عددها الصادر في ٤ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٠٨ :
« لو لم يكن لعزت باشا الى جانب اخطائه الا فضل انشاء السكة الحجازية لكفي » .

هذا وقد اعترضت الخط عقبات ومصاعب مالية جمة ، نسب بعض المؤرخين اسبابها الى سوء تصرف عزت باشا نفسه وأعوانه من اعضاء اللجنة العليا للخط الحجازي بأموال التبرعات ، مما أدى الى استصراخ المسلمين للتبرع وفرض ضرائب جديدة .

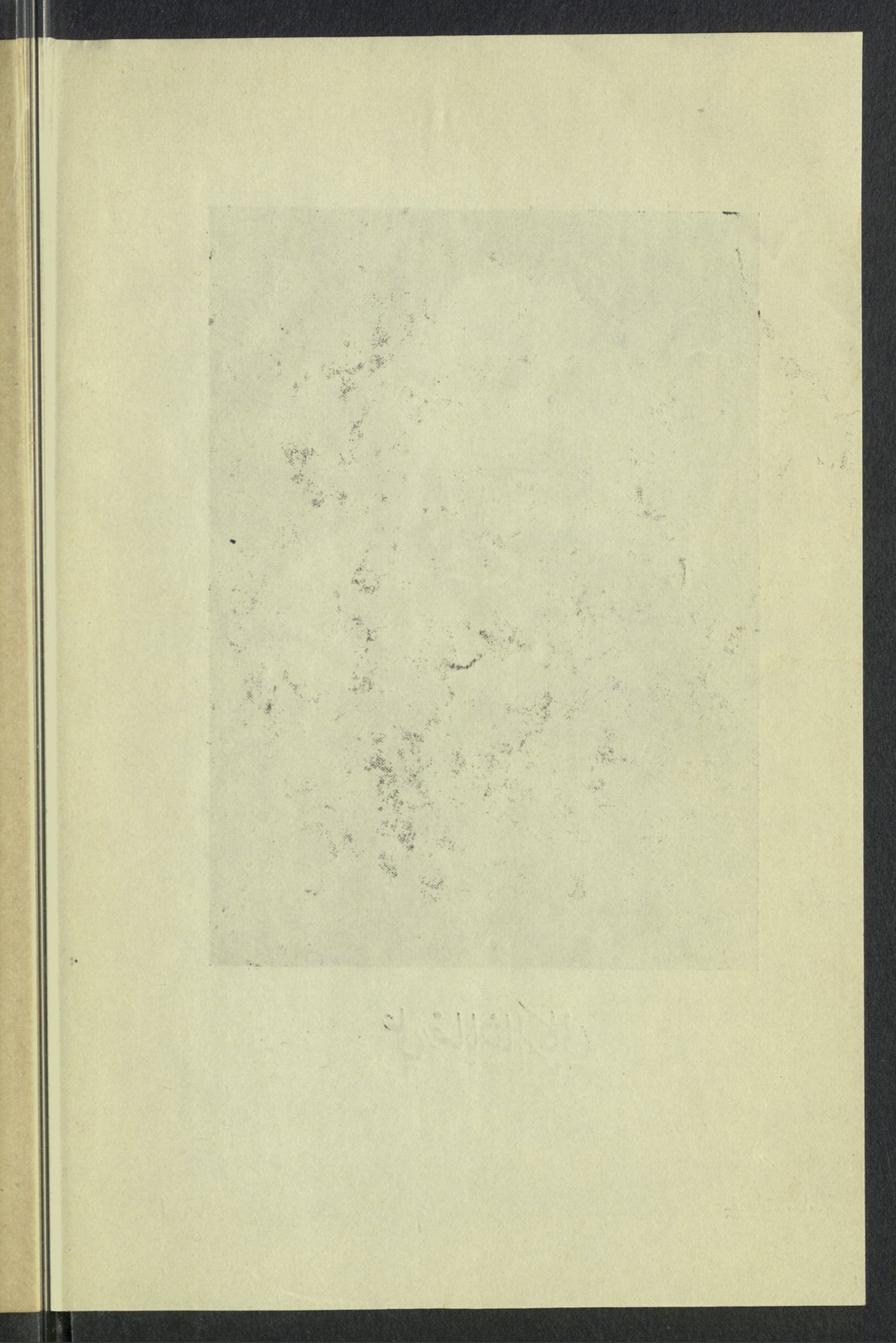
ومن هذه المصاعب اعتداءات البدو الذين يعيشون من تجارة القوافل حتى اضطرت الدولة الى استبقاء قوة مسلحة كبيرة للمحافظة على سلامة الخط .

وفي اليوم ذاته احتفل بالخط البرقي الذي انشأه عزت باشا بين دمشق والمدينة . وكان نص البرقية الاولى التي ارسلت من الآستانة الى شريف مكة : « ان جلالة السلطان عازم على اداء فريضة الحج المباركة . » ولكن الاقدار لم تمهل عبد الحميد لتحقيق هذه الامنية !



علي رضا باشا الركابي

بدوي



- ٣ -

علي رضا باشا الركابي

رئيس الوزارة الفيصلية الاولى
وحاكم دمشق العسكري

ولله ما أوفى الركابي صاحباً ،	ولله ما أدهاه عند المآزق !
وكان عظيما في الولاة محنكا ،	وكان زعيما عند زحف الفيالق !
وكم صدمته الحادثات ملحة	عليه ، فلم يجزع لوقع الطوارق!
وما بلغت منه الوشاية مأرباً ،	وان هي سحت بالسهام الدوافق!

الشيخ فؤاد باشا الخطيب

يعتبر دخول الجيش العربي دمشق في اليوم الثاني من تشرين الاول سنة ١٩١٨ فاتحة عهد جديد في حياة الامة العربية ، ونهاية مؤقتة لعهود الثورات والنضال .

كان لابد للعرب ، ككل امة ناشئة ، لم تستكمل بعد وعيها السياسي ، حديثة العهد بالحرية والحكم الذاتي ، من مواجهة عقبات تعترض سير تكوين

الدولة الجديد . ولعل أصعب ما واجهته بلاد العرب المنفصلة عن الدولة العثمانية، ضعف النعرة القومية في النفوس ، وقلة الاكفاء المخلصين من الرجال ، وأعني بذلك : رجال الدولة من مصلحين وموجدين ، وذلك أن العهد التركي، وبخاصة في أدواره الانحلالية الاخيرة ، كان شديد الوطأة على العرب عامة ، والسوريين خاصة . فقد سار زعماء الترك ، من اتحاديين وغيرهم ، على خطة منظمة في قتل النعرة العربية ، واضعاف العنصر العربي ، باستخدام أساليب فعالة شتى : منها اقصاء من توسموا فيهم ميولا قومية استقلالية شديدة ، واستئصال الاكفاء المستنيرين بالقتل آونة ، والتشريد والنفي آونة أخرى ، الا من عصمتهم التقية والتظاهر بالولاء للاتراك ، والاخلاص لقضيتهم . فاصيب العرب من جراء هذه السياسة في صميم حيويتهم بضربة شديدة أدت الى هذا القحط المريع في الرجال ، وندرة العاملين المخلصين في الشرق العربي .

نعم ! لقد كان هناك فئة من الرجال الممتازين المحيطين بالمغفور له الملك فيصل ، ولكن نصيب الشام من هؤلاء الرجال كان ضئيلا . فقد فضل معظمهم ، عقب معركة ميسلون ، الرحيل مع الملك العظيم الى العراق، والعيش في ظله ، على البقاء تحت سلطان الاجنبي ، فأوقفوا جهودهم على بناء الدولة العراقية الجديدة .

من الرجال العظام الذين عملوا في بناء الدولة العربية الفتية « علي رضا باشا الركابي » ، فقد عاش في عهد انتقال (وليس اصعب من عهود الانتقال على المصلحين) عهد ساد فيه الانحلال الخلقي والاجتماعي ، وسرت روح الرشوة والخيانة بين الموظفين ، حتى اضحت البلاد في حاجة الى رجال اشداء عمليين ، يعيدون هيبة الحكام الى نفوس الناس ، ويرفعون من شأن الادارة، ويبعثون في القلوب الشعور بالواجب ، والكرامة والتضحية في سبيل الدولة والنفع العام . وكان الركابي باشا احد الذين تصدوا لهذا العمل الجبار .

حياة الركابي

ولد علي رضا باشا الركابي في دمشق سنـة ١٨٨٦ م . وتلقى دروسه في المدرسة الرشدية العسكرية ، ثم انتقل الى المدرسة الاعدادية . وبعد أن أنهى دراسته في هاتين المدرستين ، أرسل لتفوقه ونبوغه الى المدرسة الحربية في الآستانة ، فأتم دراسته وتخرج منها برتبة « رئيس اركان حرب » بدرجة ممتازة ؛ ثم تدرج في المناصب العسكرية ، حتى بلغ رتبة « زعيم اركان حرب » وعين قائداً للجيش العثماني المرابط في القدس ، ووكيلا لمتصرفها . ولما اعلن الدستور العثماني ، عين رئيساً للشعبة المخصوصة في الآستانة ، ثم نقل منها الى المدينة المنورة ، فعين محافظاً لها وقائداً لجيشها ، بعد ان رقي الى رتبة اميرلواء ، ثم نقل الى العراق حيث تولى قيادة الجيش في بغداد والبصرة .

وفي عام ١٩١٤ ، عند ما اعلنت الحرب الكبرى ، استشارت الدولة العثمانية قوادها في دخول الحرب الى جانب حليفتها المانيـا ، فـكان من رأي الركابي باشا وهو الخبير بامور الدولة ، والدراية بمواطن الضعف والقوة ، البقاء على الحيـاد لضعف الدولة وعدم استعدادها . فلم يرق هـذا الرأي الاتحاديين وانصار الحرب ، فأحيل لهذه الروح الانهزامية على التقاعد . ولما عاد الى دمشق ، اراد جمال باشا ان يكون الركابي باشا على مقربة منـه للاستفادة من خبرته من جهـة ، ولتسهل عليـه مراقبته من جهة اخرى . فأسند اليه رئاسة بلدية دمشق ، ورئاسة التحكيمات ، فقبل بهذين المنصبين دفعاً للشبهات . وكان مصدر هذه الشبهات أن الركابي كان احد مؤسسي « الجمعية العربية الفتاة » و « جمعية العهد » ، وهما الجمعيتان اللتان بذرتا بذور القومية العربية في زمن العثمانيين .

الركابي والثورة العربية

ولما اعلنت الثورة العربية الكبرى لم يكن للركابي فيها نصيب عملي يذكر

ولا صوت مسموع ؛ على أنه كان في ادوارها الاخيرة ، كما يذكر لورنس في كتابه « اعمدة الحكمة السبعة » على صلة بالمغفور له الملك حسين ، وبنجله العظيم فيصل .

وبعد دخول الجيش العربي دمشق ، عين الركابي باشا حاكما عسكرياً للمنطقة الشرقية من بلاد العدو المحتلة .

ولما اعلن المؤتمر السوري استقلال سورية في الثامن من شهر آذار سنة ١٩٢٠ ، ونودي بفيصل بن الحسين ملكاً ، عهد اليه بتأليف اول وزارة دستورية عربية (١) فتسلم الركابي باشا زمام الامر ولقب بالحاكم العسكري .

الركابى فى الاردن

ولما احتل الفرنسيون سورية ، عقب معركة ميسلون المشؤومة ، رحل الركابي باشا الى مصر ، ومنها الى الحجاز. فكلفه جلالة الملك حسين بالسفر الى شرق الاردن لمعاونة الامير عبد الله في تأسيس دولة شرق الاردن. فالف في ١٢ آذار سنة ١٩٢٢ الحكومة الاولى بعنوان رئيس المستشارين ، وعمل على تنظيم قوانين البلاد وانظمتها المالية وجهازها الاداري . ثم انتدبه الامير عبد الله في ٣ تشرين الاول سنة ١٩٢٢ لمرافقته الى لندن لعقد معاهدة بين بريطانية العظمى والاردن ، والبحث في شؤون العرب . ولكن شيئاً من هذا لم يتم، فاستقال الركابي باشا وعاد الى الاردن في ١٦ كانون الثاني سنة ١٩٢٣ فألف الوزارة للمرة الثانية في ٣ أيار ١٩٢٤ (٢) .

---

(١) جاء في المنشور الذي اذاعه الملك فيصل على الاهالي سورية في الخامس من شهر تشرين الاول سنة ١٩١٨ : « عهدت الى السيد رضا باشا الركابي بالقيادة العامة للحكومة نظراً لثقتي باقتداره ولياقته » .

(٢) حدد الركابي برنامج وزارته كما يلي : « اتباع الصدق والاخلاص في القول والعمل ، والعزم والحزم في الامور ، وتوزيع العدل بين افراد =

ولما نشبت الثورة السورية سنة ١٩٢٦ كان للركابي فيها مواقف مشرفة في الدعوة السرية للثورة والعمل على اذكاء نارها واغاثة اللاجئين منها .

وعند انتهاء الثورة استقال من شرق الاردن واقام في حيفا والقدس ، يعيش عيشة الكفاف والضيق ، الى ان سمح له بالعودة الى وطنه دمشق .

ولما توفي جلالة الملك فيصل ، اعتزل الركابي باشا الحياة السياسية واقام في منزله في ظاهر دمشق منقطعاً عن الناس الى ان وافاه اجله يوم الاثنين في ٢٥ ايار سنة ١٩٤٢ .

وقد اصيب في اواخر حياته بالشلل النصفي ، ولكن ظل محافظاً على وعيه حتى الرمق الاخير .

صفات الركابي

كان الركابي باشا قصير القامة ، ممتلىء الجسم ، ضخم الرأس يكاد يلتهم كل جسمه ، براق العينين تشبهان عيون الطيور الجارحة ، يصعب على محدثه التحديق اليهما . وكان هذا البريق ينبعث عن حيوية هائلة كامنة لا تجد منفذاً الا في الحركة والعمل .

والركابي باشا شخصية فذة نادرة : ووجه الندرة فيها انها تحقق التوافق العجيب بين الفكر والعمل . ذلك التوافق الذي عرف به العسكريون وكبار

= الشعب، والمراعاة التامة للقواعد الاقتصادية والكفاءات في الوظائف والموظفين والنفقات ، وقمع بذور الفساد وما يسيء السمعة بكل شدة ، وعدم التحزب والتحيز والتعاضد والتكاتف في جميع امور الاصلاح ، وصيانة المنطقة من الاحوال المخلة بالامن .. »

ولا حاجة للبيان ان جميع هذه الامور تعبر تماما عن ميول الركابي باشا واتجاهاته في حياته الادارية .

الساسة وقادة الشعوب ، فهو لا يكاد يتصور الفكرة حتى يبادر الى تنفيذها فلا مجال عنده لتسرب التردد ، وتسلط الخيال . وقد أثر عنه انه بينما يكون جالساً في مكتبه بين دفاتره وأوراقه ، اذ به يقف فجأة وينحدر قاصداً الامكنة النائية في الدولة ، للتفتيش عن الموظفين ، والتثبت من صلاح الامور وانتظام سير الاعمال ، حتى بات الموظفون يتصورون ان عين الركابي الساهرة ترمقهم في كل لحظة بنظراتها الحادة القوية التي ينبعث منها الشرر والضياء .

وفضيلة اخرى يجب ان تقرن الى حبه للعمل ، تلك الجرأة والارادة الصلبة في التنفيذ ، فكأنه لا يهاب احدا ، ولا يخشى معارضا او خصما . ويخيل الي ان جماً من الناس كان يستطيع الفتك به ، ولكنهم لا يستطيعون ان يخيفوه ، اذ لم يعرف الخوف الى قلبه سبيلا . ثم ان الخوف في نظر الركابي باشا معناه الذلة والاعتراف بالعجز ، وهذان امران يأباهما طبعه القويم ، وخلقه الوعر ، ومزاجه الحاد .

كان رحمه الله من اعداء « النسبية » و « المحسوبية » الالداء ، وهما عادتان ذميمتان حرص الناس عليهما حتى غدتا من الاسس التي تشاد عليها القيم ، وعلاقات الناس في الشرق العربي . وقد لاقى ذووه واهله من جراء ذلك الواناً من الظلم والخيبة ، وهو الى ذلك يمقت الاوضاع الشاذة التي تتنافى وفكرة العدل والمساواة . ولذا ضعفت في نظره الاعتبارات والاصطلاحات التي تقاس بها علاقات الافراد في المجتمع ، كالصداقة ، والوجاهة ، والمنافع المتبادلة ، القريبة منها او البعيده .

كان في مقدور هذا الرجل السير مع تيار زمانه ، والاغضاء عن النقائص فيعيش سعيداً هادئاً ينعم بدنياه ولذائذها ، فقد تجمع لديه الجاه والسلطان والمقدرة والذكاء والشهرة ، ومقاليد الامور يصرفها على هواه .

ولكن انى له ذلك فيكون قد ناوأ طبعه وخالف نشأته ، وثار على دخيلته ! وما اخذ على نفسه ـ منذ بدء حياته الى منتهاها ـ من السير في طريق قويمة لاعوج فيها ولا التواء .

وكان الركابي باشا قد عاش في هذه الدنيا الصاخبة وحيداً ، فان نزاهته التي اصبحت في زماننا النكد مضرب الامثال ، قد صنعت كلها من الطهارة ، طهارة اليد وطهارة الوجدان . فهو لم يكن على شاكلة اناس كثيرين ، يرون في عصور الانتقال والاضطرابات والفوضى ، دافعا للتضحية بالامانة والاخلال بالشرف ، والاستهانة بالكرامة .

هذا هو معنى الوحدة التي لزمها وانس بها في حياته. فكان من اثر ذلك ان ابتلي الرجل بانواع الخصومات الظاهرة والخفية ، وذاق طعوم الحرمان ، ومنع الدعة التي أستحقها في اواخر حياته ، وشرد في الآفاق ، حتى صح فيه قول ابي الطيب :

وحيد من الخلان في كل بلدة　　اذا عظم المطلوب قل المساعد

كان اذن ، لايفسح مكاناً الوساطات والزلفى والشفاعات التي هي من ابرز عيوب الخلق الشرقي والخلق السوري على السواء .

حدثني رجل ممن خبروه زمناً ، وبلوا اطباعه ، انه كتب مرة الى مدير الصحة بعزل احد الاطباء ، لانه « نقل عن لسانه كلاماً لم يقله » ، وكان عذره في الاقدام على هذا العمل ان هذا الموظف « لم يشتمل على صفات يجب ان تتوفر في كل موظف نزيه » !

كان الموظف في ذهن الركابي باشا صورة مثالية ، حرص طوال حياته على تحقيقها ، فالموظف في نظره عنصر فعال في جهاز الدولة ، مسخر للخدمة العامة . وكان اكثر ما يخيفه عند الموظفين ، ضعف الوازع المسلكي الذي

يؤدي الى التراخي والفتور في اداء الواجب وتسهيل المصالح . وكان يعلم ان فساد الموظف يعود باسوأ النتائج على المجتمع ، ويعمل على قتل الكفاءات وتفشي داء الملق والمصانعه والدجل ، وسلوك الطرق المعوجة لنيل الحظوة والمثالة عند اولي الشأن وذوي السلطان .

حدثني من اثق بحديثه قال : عزم الركابي باشا ، يوم كان رئيساً للوزارة على زيارة مدينة حمص . وكانت المدرسة التجهيزية ضمن الاماكن التي قرر الباشا زيارتها . فاخبر مدير المدرسة بالامر ، وكان يومئذ السيد عبد الحميد الحراكي فجمع هذا الاساتذة والطلاب وسار في طليعتهم الى المحطة لاستقبال دولة الباشا ، حاملين الاعلام ، منشدين الاغاني الوطنية . ولما وصل الركابي باشا وقدر ما اضاعه هؤلاء الطلاب من الجهد والوقت في استقباله ، غضب غضبة شديدة ، واستدعى المدير وأنبه على فعلته ، وكان مما قاله : « اني قدمت حمص لشؤون ادارية رسمية ، منها تفتيش المدارس ، والاطلاع على سير الاحوال والتدريس فيها ؛ وسأكون في مدرستك بعد ساعة » . فما كاد مدير المدرسة يسمع هذا الكلام حتى اشار على المعلمين والطلاب بالرجوع الى المدرسة من اقصر طريق ، فاندفعوا جميعاً ، وعلى رأسهم المدير مهرولين بين الازقة والحارات ؛ ولم تمض ساعة حتى كان الباشا في المدرسة يتفقد صفوفها .

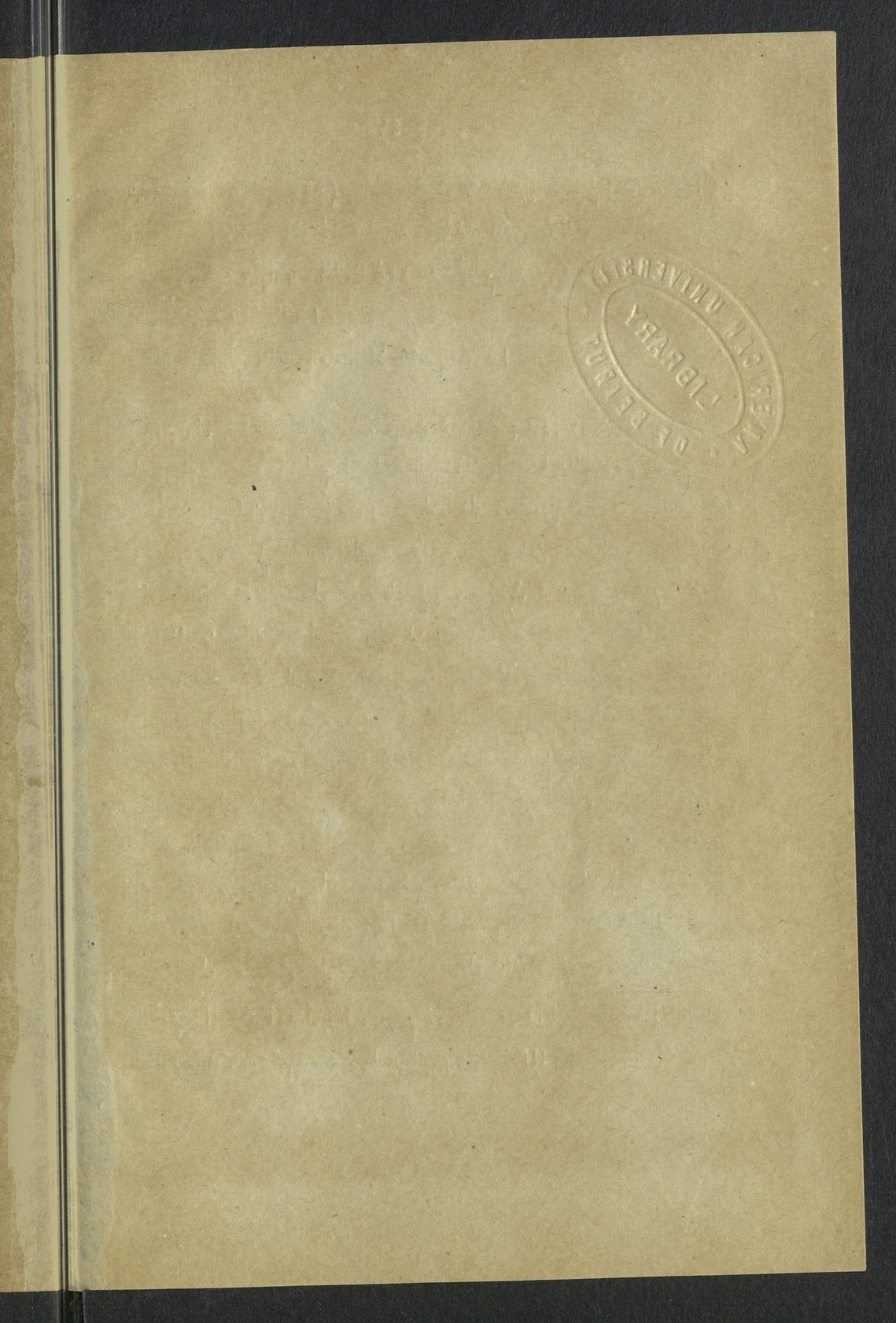
تلك حادثة من حوادث عديدة يتناقلها الناس كلما ذكر الركابي ، أو كلما افتقدوا الاكفاء ، او اعوزتهم الرجال الخلص ، وهي بليغة في الدلالة على احترام الركابي باشا الواجب وتقديسه ورعايته للمصلحة العامة .

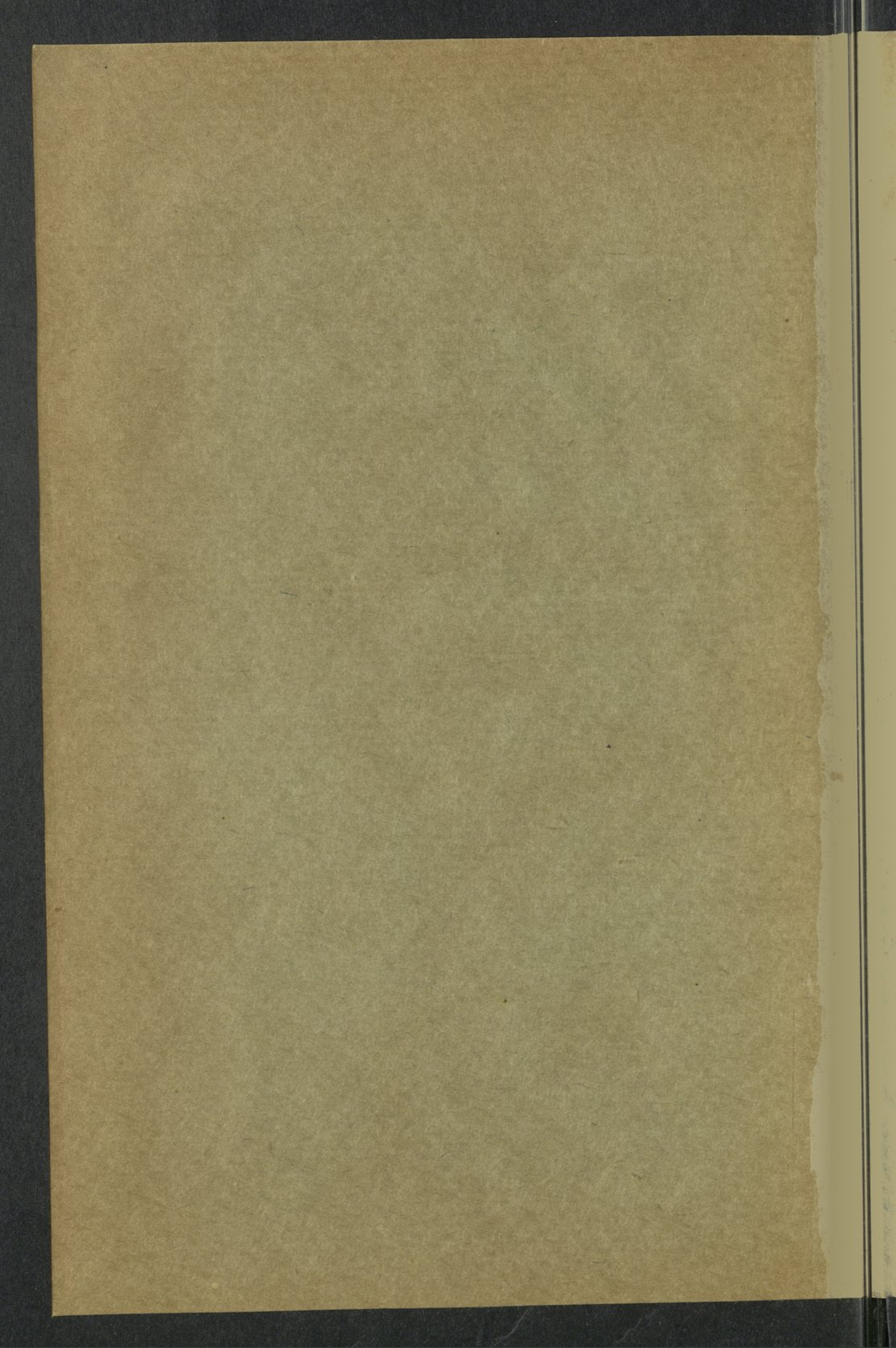
كل هذا لايعني ان سيرة الركابي باشا منزهة عن الاخطاء والعيوب : فان خصومه يتهمونه مثلا بضعف العقيدة القومية ، ويستشهدون على ذلك بحوادث جرت في العهد العثماني التزم فيها الركابي باشا ، بحكم وظيفته ، جانب

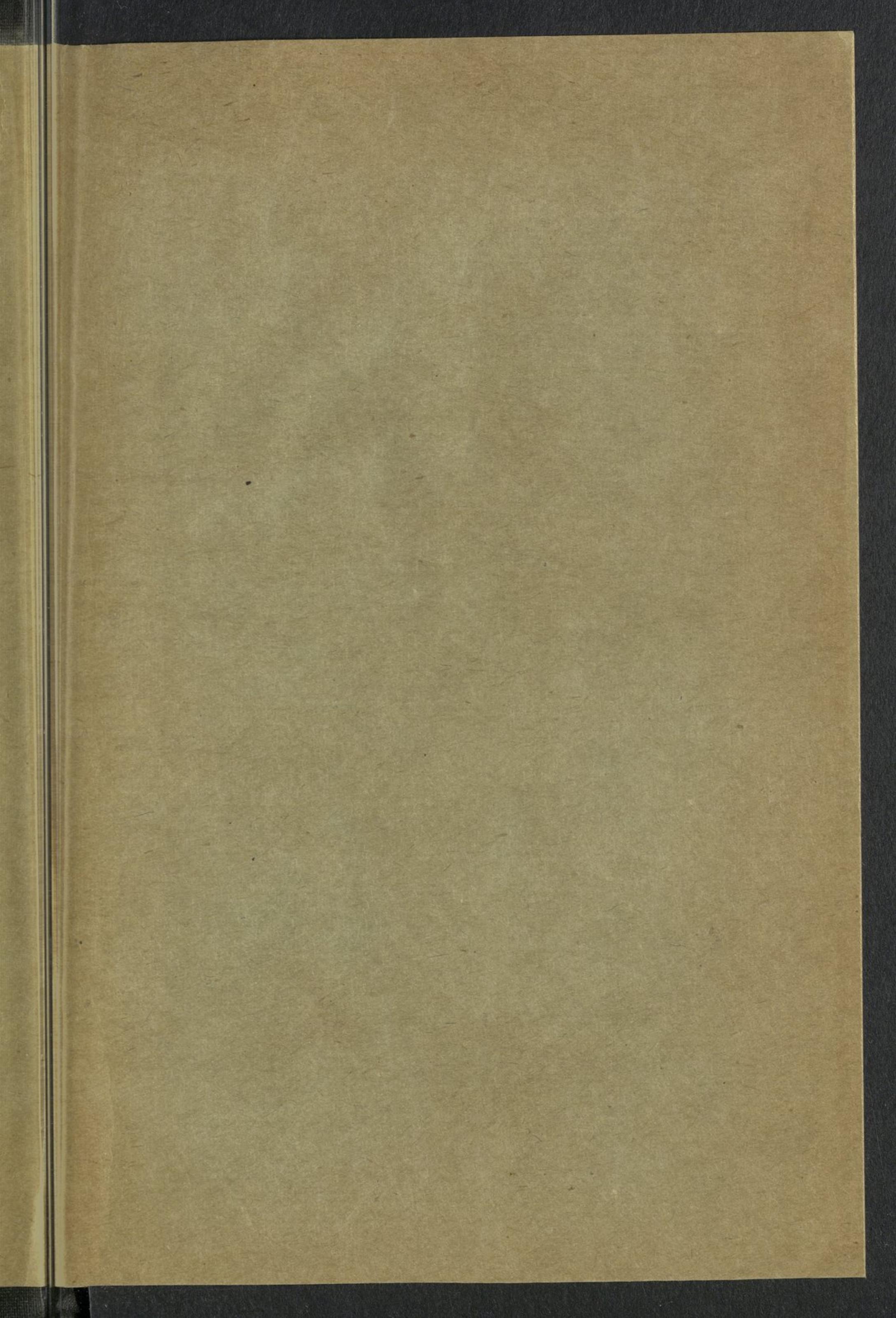
الترك ضد بني قومه العرب (١). والحقيقة ان الاخلاص عنده لم يكن محدوداً بزمان او مكان ، فقد كان مخلصاً لعمله ووظيفته زمن الترك ، يعطيها من قلبه ودمه وفكره ، كما كان مخلصاً لهما زمن الحكم العربي ، وكما كان في كل مكان طوحت به الايام اليه !

وهذا ، لعمري ، اقصى مدى الاخلاص المجرد !

(١) يقول جلالة الملك عبد الله في مذكراته ص ٤٨: «وكنت والركابي محافظ المدينة - اوصلت الحج الى طيبه على ساكنها افضل الصلاة والسلام . فزارني امير حج ابن رشيد وقال : ان المحافظ منعه من دخول المدينة المنورة ومعه علم ابن رشيد ، وهو علم اخضر مكتوب عليه « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » فاذا لم يسمح له بذلك فسيعود بالحج ،وانه كلم المحافظ بعزمه فلم يأبه له . فزرت الركابي باشا وقصصت عليه ما بلغني فقال : لا يدخل هذه البلد ولا يرفع بها الا العلم العثماني. فقلت يا حضرة الباشا، جرت العادة بهذا وقد دخل مكة ، ومعه علمه، فاذا أصررت على رأيك عاد مع من معه قبل أن يزوروا المصطفى صلى الله عليه وسلم، فماذا عساه أن يكون اذا دخل كالعادة السابقة؟ قال: لا يكون هذا ابداً. فقلت: الامر خطير، وأنا أسألك كمحافظ ، وسأسأل وزير الداخلية ببرقية بصفتي النائب الحجازي في مجلس المبعوثان العثماني ، عن حقيقة ابن رشيد ، هل هو صاحب امارة مستقلة ، لا ينبغي رفع علمها الا باذن ومراسيم خاصة ، أم هو أمير تابع للدولة يحمل علم الحجاج الاخضر لان محافظ المدينة رفض دخول الحاج على الطريقة المعتادة ، وقال : ان لا علم هنا غير العلم العثماني وبهذا يشير الى ان ما بيد أمير الحاج علم غير عثماني: فقال لي . ارجوك! لا تفعل وانا قد أخطأت ... ثم استدعى امير الحج وسمح له !!! »









American University of Beirut



923.2
K231aA

General Library

923.2
K231aA